عبد الجبار ابراهيم العامر
ليسانس حقوق
مدير المعهد المهني للبنين في الكرخ

الحاجب المنصور

سيد الاندلس في القرن العاشر الميلادي



١٩٥٦

اقدم اول ثمرة انتاجي الى سعادة الاستاذ الفاضل السيد عبد الرحمن البزاز عميد كلية الحقوق المحترم .
عبد الجبار ابراهيم الحامد
١٩٥٦/٨/٢٠

الحاجب المنصور

« شخصية لا تنسى »

آثاره تنبيك عن أخباره
حتى كأنك بالعيان تراه
تالله لا يأتي الزمان بمثله
أبداً ولا يحمي الثغور سواه

بقلم
عبد الجبار ابراهيم الحامد
ليسانس حقوق
مدير المعهد المهني للبنين
في الكرخ

١٣٧٥هـ - ١٩٥٦م

مطبعة دار المعرفة - بغداد

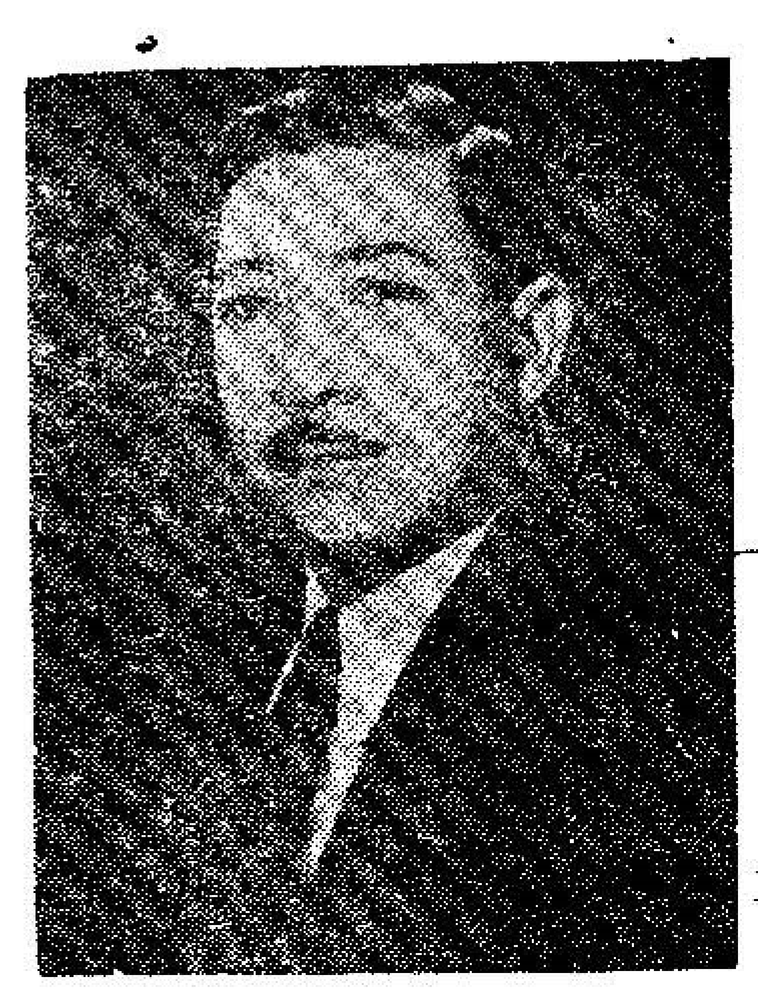
الإهداء

أقدم هذا الكتاب التاريخي المتواضع الى الشباب العربي لمعرفة تاريخ أجدادهم العظام ليقفوا على أسباب عزهم وليطلعوا على تراثهم المجيد في أوربا .

وما هذا الكتاب سوى جزء من هذا التاريخ العربي الواسع الحافل بجلائل الأعمال ، ذلك هو تاريخ شخصية فذة لامعة في التاريخ الأندلسي بل في التاريخ الاسلامي كله ألا وهو « الحاجب المنصور » .

عبد الجبار ابراهيم الحامد

المقدمة



كنت في الصف المنتهي من دار المعلمين الابتدائية سنة ١٩٤٠ عندما طلب الينا مدرس التاريخ الاسلامي السيد (احمد بديع المغربي) أن يكتب كل منا رسالة من التاريخ العربي، وقد فكرت يومئذ وأمعنت في التفكير في الموضوع الذي اختار لعلي أخرج الى فكرة مقبولة ، فاهتديت بعد جهد يسير الى موضوعي هــذا وهو (الحاجب المنصور) تلك الشخصية العربية الفذة .

وقد اتخذت هذه الشخصية عنواناً لكتابي هذا لانها تتسم بالرجولة والقوة والحيوية وحب العرب والغيرة على الدين الاسلامي ، ونحن في زمن أحوج ما نكون فيه الى شخصية كهذه الشخصية ، ذلك لانها شخصية تتصف « بسيكولجية خاصة » فهو يرى الاشياء على حقيقتها ، واسع الافق، يسير نفسه لا كما تهوى وتحب بل كما يهوى هو ويحب ، لان عاطفته طوع

إرادته ، وجسمه خاضع لعقله ، ولذاته وشهواته خاضعة لطموحه ، فكان ماسكاً زمام نفسه ، مسيطراً على أعماله ، حازماً في إدارته ، عارفاً مقدرة رجاله ، شجاعاً في حروبه ، ينتزع المواقع الحربية من أعدائه انتزاعاً ولا يدع لهم فرصة التفكير في المصير ، إنه يبدأ الهجوم دائماً ولا يقبل الدفاع الا سياسة ، لذلك أكبره الأعداء قبل الأصدقاء ، عرف كيف يسوس البلاد ويعطي كل ذي حق حقه ، ويخضع الاعداء ويرهبهم ويردهم الى وراء حدودهم طوعاً أو كرهاً ، غزاهم في عقر دارهم أكثر من خمسين غزوة لم تنكسر له فيها راية ، فاثبت بذلك انه رجل حرب وسياسة على السواء .

وخلاصة القول أني انما اخترت شخصية (الحاجب المنصور) لانها فريدة في التاريخ العربي من حيث ظهورها في وقت تشتت فيه شمل العرب حتى لقد طمع الأعداء فيهم فأرهب ظهور هذه الشخصية الطامعين من الفرنجة والدويلات الأندلسية المسيحية في الشمال والدول المعاضدة لها من الأوربيين حيث استطاع فرض الجزية عليهم يؤدونها إليه عن يد وهم صاغرون ، وكان المنصور ذا نظر ثاقب بعيد وتبصر في عواقب الأمور ، ذلك عندما تزدحم المشاكل يلقاها برزانة وهدوء فيحلها الواحدة بعد الأخرى دون التباس وهكذا نجده يرسم الخطة وينفذها كلا حسب أهميتها ومتطلباتها ، شديداً في مواقف الشدة وليناً في مواطن اللين ، يطلع بنفسه على كل صغيرة وكبيرة من شؤون الدولة والشؤون العامة ، لا تفوته شاردة ولا واردة الا أحصاها ، وبمثل هذا الحزم والدهاء استطاع أن يصفي الجبهة الداخلية أولا ويؤمنها لتكون له حصناً قوياً وقت الملمات ، ثم التفت الى

أعداء الدولة من مسيحيي الشمال لحطم معاقلهم وفل جموعهم وأخضعهم الى سلطان الدولة ، ثم أرسل طرفه عبر البحر الأبيض المتوسط ليخضع الأمراء الأفريقيين ويردهم الى الطاعة بعد المروق والخروج عنها ، وهكذا تمت له السيطرة على المغرب الأقصى والغرب الاندلسي ، فصار سيد الأندلس دون منازع ، أمر فيطاع ولكن دون تفريط .

ومع ما قام به المنصور من أعمال حربية متصلة مدة حكمه قام بأعمال عمرانية جليلة ومشاريع زراعية جلبت للبلاد الرفاهية والسعادة .

هـــذا وبعد أن اهتديت الى شخصية المنصور الحافلة بالمعاني والآثار والتاريخية المجيدة والتي سجلت له صفحات بيضاء في التاريخ العربي إبتدأت بالعمل ولكن أول الغيث قطر ثم ينهمر .

كان عملي أول الأمر بسيطاً لأن المصادر التي وقعت بين يدي كانت بدورها بسيطة ولكن لرغبتي في الاطلاع والزيادة أخذت أسأل وأنقب عن كل مصدر له صلة بهذا الموضوع من بعيد أو قريب ، فاقتطفت من كل حديقة زهرة لاجمع منها باقة طيبة الأريج جميلة المنظر ، لذلك كانت الفترة طويلة لأنها متقطعة غير متصلة لكثرة أشغالي وقلة فراغي من جهة ومن جهة أخرى أن المصادر استكملت وجودها بهذه الفترة لما صدر منها الى بغداد من قديم وحديث فاستطعت بواسطة مكتبة الآثار بصورة خاصة من الحصول عليها بسهولة بفضـــل السيد (كوركيس عواد) أمين مكتبتها فاسجل شكري له . أخرجت هذا الكتاب الذي رتبته وبوبته معتمداً على نصائح وتعليقات الأستاذ الفاضل السيد (ناجي معروف) عميد كليـــة

الشريفة فأقدم جزيل شكري وامتناني له ، كما أني لا أنسى مساعدة الأخوين : (عواد مجيد الأعظمي) مدرس ثانوية الأعظمية و (محمد علي الحلاوي) ملاحظ مجلة سومر ومكتبة الآثار ، لما أبدياه من مساعدة تستوجب الشكر ، وهكذا تم هذا الكتاب وهو باكورة أعمالي وعسى أن يجد القارىء العربي طريقاً من الطرق التي يستنير بها للوصول إلى ما وصل اليه السلف الصالح من رفع مجد هذه الأمة الكريمة التي هي الآن أحوج ما تكون الى الأيدي العاملة والعقول المفكرة لتنتشل هذه الأمة من رقدتها الى العز والقوة بعد الذل والهوان ، وتلم شتاتها بعد التفرق .

وأرجو أن يهيء لي التشجيع القوة على اخراج سلسلة لشخصيات عربية أخرى تكون الدليل على أن الأمة العربية ليست عقيماً كما يبدو لكثير من الشباب العربي المتوثب .

والله أسأل أن يوفقنا جميعاً لخدمة هذه الأمة .

عبد الجبار ابراهيم الحامد

الفصل الأول

مقدمة في أحوال اسبانيا في عصري الامارة والخلافة

القسم الأول

الأندلس : اسمها ، حدودها ، سكانها ، فتحها

« الاندلس »(١)

هي شبه جزيرة تقع الى الجنوب الغربي من أوربا ويطلق عليها تجاوزاً اسم الجزيرة (٢) . مساحتها (٢٧،١٥٣) ميلا مربعاً (٣) ونحو (٨٦،٦٨٧)

(١) ص ٣٧٥ ج ١ - ليدن - معجم البلدان « ان كلمة الأندلس أعجمية لم تستعملها العرب في القديم وانما عرفتها العرب في الاسلام وقد جرى على الالسن » وفي دائرة المعارف للبستاني ص ٤٧١ كلمة ﴿ اندلس ﴾ *Andalusia* وفي الاسبانيولية ﴿ اندلوشيا ﴾ وهي في الأصل ﴿ فندالوشيا ﴾ سميت بذلك من ﴿ الفندالة ﴾ وهي أمة نزلتها في القرن الخامس للميلاد وكان اسمها قديماً بتيكا ﴿ البتيك ﴾ وهي تطلق الآن على قسم كبير من اسبانيا واقع في اقصى جنوبيها . وجاء في الروض المعطار ص ١ أن اسم الاندلس في اللغة اليونانية ﴿ اشبانيا ﴾ .

(٢) ذكر هذا الاسم تجاوزاً كما تذكر جزيرة العرب ، وممن ذكرها بهذا الاسم : ابن حوقل في معجم البلدان وعنه أخذ المقري في نفح الطيب وكذلك المراكشي في المعجب .

(٣) دائرة المعارف ص ٤٧٢ للبستاني .

كيلو متراً مربعاً أي نحو سدس مساحتها الحالية ، هذه هي الأندلس (١) ، فيها عامر وغامر طولها نحو الشهر في نيف وعشرين مرحلة تغلب عليها المياه الجارية والشجر والثمر والرخص والسعة في الأحوال (٢) . وجاء في الروض المعطار أن مسافة ما يملكه المسلمون من الأندلس ثلاثمائة فرسخ طولا في ثمانين فرسخاً عرضاً وللنصارى مثل ما يملكه المسلمون أو نيفاً (٣) . يحدها من الجنوب منتهى الخليج الرومي (٤) من البحر الأبيض المتوسط مما يقابل طنجة في موضع يعرف بمضيق (٥) جبل طارق (٦) وسعة البحر هنالك إثنا عشر ميلا ، وهذا الخليج هو ملتقى البحرين ، أعنى : البحر الأبيض المتوسط (٧) والمحيط الأطلسي (٨) ، ويحدها من الشمال الغربي المحيط الأطلسي ، ويحدها من الشرق الجبل الذي فيه هيكل الزهرة الواصل ما بين البحرين : البحر الأبيض المتوسط والمحيط الاطلسي ومسافة ما بين البحرين في هذا الجبل قريبة من ثلاث مراحل وهذا الجبل هو الحاجز ما بين بلاد

(١) ص ١١٧ ج ٢ غرائب الغرب (محمد كرد علي) ويقول : « بيد أن حكم العرب تجاوز ذلك وراء برشلونة من الشرق ووراء اشبونة من الغرب .

(٢) معجم البلدان ص ٣٧٦ ج ١ ـ ليدن (ياقوت الحموي) .

(٣) ص ٤ الروض المعطار (ابي عبدالله الحميري)

(٤) في الجهة الغربية من البحر الابيض المتوسط .

(٥) يعرف بالمجاز أو الزقاق (انظر المعجب ـ المراكشي) ص ٤

(٦) جبل الفتح .

(٧) البحر الرومي ويسمى ايضاً « مانطس » المعجب للمراكشي ص ٤

(٨) البحر الاعظم او بحر الظلمة ويعرف ايضاً « اقنا بس » نفس المصدر السابق

الاندلس وبلاد إفرنسة (١) من الارض الكبيرة أرض الروم التي هي بلاد افرنجة العظمى (٢) . واختلف المؤرخون عن تعداد سكان الاندلس في عصري الرومان والمسلمين الى زمن الناصر والمستنصر لعدم وجود وثائق تثبت ذلك ، ولكن من التخمين (٣) يمكن ان يكون عـــدد المسلمين في الاندلس لعهد الناصر والمستنصر لا يقل عن خمسة عشر مليوناً (٤)؛ويتراوح عدد سكان الاندلس بين سنة (١٥٩٤ م) وأوائل القرن العشرين بين ثمانية ملايين وإحدى وعشرين مليوناً من الأنفس ، أما الآن فيبلغ عدد سكانها (٢٢) مليوناً و (٣٣٨) ألفاً (٥) إن فحوى هذا الجدول يدل على صدق تقدم الاندلس من الناحية الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والصحية ؛ لان كثرة السكان في بلد تكون نتيجة لهذه المقومات وليس أبلغ مما نجد إذ أن

---

(١) ص ٤ ـ المعجب في تلخيص اخبار المغرب ﴿ عبد الواحد المراكشي ﴾

(٢) ص ٣٤ ج ١ ـ ليدن ـ معجم البلدان « ياقوت الحموي » : ان افرنجة أمة عظيمة لها بلاد واسعة وممالك كثيرة وهم نصارى ينسبون الى جدلهم واسمه « افرنجش » وهم يقولون ﴿ فرنك ﴾ وهي مجاورة لرومية والروم وهم في شمالي الاندلس نحو الشرق الى رومية ودار ملكهم ﴿ نوكبردة ﴾ وهي مدينة عظيمة ولهم نحو مائة وخمسين مدينة وقد كان قبل ظهور الاسلام أول بلادهم من جهة المسلمين جزيرة « رودس » قبالة الاسكندرية في وسط بحر الشام ﴿ البحر الابيض المتوسط ﴾ .

(٣) ان الجيوش الاسلامية التي فتحت الاندلس والموائل الاسلامية التي سكنت الاندلس من الشام والاردن ومصر والمغرب وكذلك الذين اسلموا من الاسبان بعد الفتح كل هذا يعطينا هذه الفكرة عن الاسلام في الاندلس وكثرتهم .

(٤) ص ٤١ جـ ١ الحلل السندسية ـ شكيب ارسلان ـ

(٥) ص ٤٢ جـ ١ الحلل السندسية ـ شكيب ارسلان ـ

المسلمين فقط في زمن الناصر والمستنصر يبلغ عددهم خمسة عشر مليوناً باستثناء الانفس التي تسقط في حومة الوغى ، كان المجتمع الاندلسي قبل الفتح الاسلامي متبايناً متفسخاً لتنافر الطبقات التي خلقتها الأحزاب والاقوام الحاكمة : فهناك طبقة الاشراف ورجال الكنيسة التي كانت تتمتع بالامتيازات ، وهناك طبقة اليهود الذين كانوا مضطهدين بالرغم من تقدمهم الثقافي ، والطبقة الثالثة التي كانت تأن من الظلم والتعسف الذي فرضه عليها اسيادهم ، هؤلاء هم طبقة العبيد ورقيق الارض .

مثل هذا الشعب المتباين في ثقافته وشخصيته ومنزلته الاجتماعية والاقتصادية لحرى به أن يطلب الخلاص ولو كان المنقذ يختلف عنه عنصراً ولغة وغاية طالما يحقق له الحرية والانطلاق ، زد على ذلك ان الحكام في زمن القوطيين كانوا منقسمين الى احزاب وشيع كل حزب يريد الاستيلاء على الحكم بمختلف الوسائل وقد بلغ بالبعض منهم ان يتفق مع الاجنبي لازاحة خصمه تشفياً وإرضاء لكبريائه ، (١) هذه الحالة القلقة في الاحوال السياسية والاجتماعية شجعت موسى بن نصير على غزو الأندلس فكتب الى الخليفة في الشام الوليد بن عبد الملك يستشيره في الامر فتردد أولا ثم أذن له مع الحيطة

---

(١) ص ٤٨٥ ج١ تاريخ الاسلام السياسي ـ الدكتور حسن ابراهيم حسن ـ : « ان في سنة ٧٠٩م عزل الامبراطور *Witica* الذي يسميه العرب (غيطشه) وكان قد تولى عرش اسبانيا بعد اجيسا *Egica* فتولى مكانه آخيلا *Achila* في اوائل سنة ٧١٠م ثم عزل في ربيع تلك السنة على يد نبلاء القوط ورجال الكهنوت الذين ولوا مكانه رودريك *Roderic* قائد الجيش القوطي وفي ظل هذه الانقلابات تشكلت الاحزاب وكان اقواها بزعامة آخيلا لاسترجاع عرشه . »

فارسل (موسى) طريفا بن مالك على رأس خمسمائة مقاتل سنة (٩١ هـ) ٧١٠ م ، فغزا بعض الثغور الجنوبية في بلاد الاندلس بمساعدة (جوليان)(١) وقيل (إيليان) وعاد بالغنائم وقد شجع هذا (موسى بن نصير) فأعد جيشاً مكوناً من سبعة آلاف مقاتل معضمهم من البربر وولى قيادته مولاه طارق بن زياد حاكم طنجة فعبر طارق البحر سنة (٩٢ هـ) ٧١١ م في سفن (جوليان) (٢) ونزل باقليم البحيرة فى جنوب اسبانيا (٣) قبيل الفجر في

(١) جوليان او ايليان ـ اختلف الرواة فيه فنهم من يقول انه تاجر أعجمي كان يتاجر بين افريقية والاندلس ، ومنهم من قال انه كان عاملاً أو حاكماً على ـ سبتة ـ من بر العدوة من قبل القوط ، وهذا ما اتفق عليه القلقشندي في صبح الاعشى ص٢٤٢ ـ ٥ وابو عبدالله الحميرى في الروض المعطار ص٧ والدكتور حسن ابراهيم حسن في تاريخ الاسلام السياسي ص٤٨٦ ـ ١ والبلاذري في فتوح البلدان ص ٢٩٣ وكذلك المراكشي فى المعجب ص ٧ والاصح انه كان حاكما على سبتة حيث كان قريباً من القيادة الاسلامية العامة في افريقية أما سبب اختلافه مع رودريك *Roderic* كما هو موجود فى معظم المصادر وقد ذكر ابن القوطية في تاريخ فتح الاندلس كان لجوليان *Julian* ابنة فائقة الجمال ، فتوجه بها الى دار لذريق ـ على عادتهم فوقع نظره عليها فأعجبته فاستكرهها على نفسها فاستاء أبيها لهذا العمل فكتب الى موسى يحرضه على غزو الاندلس .

(٢) ص٤٨٦ ـ ١ تاريخ الاسلام السياسي ـ الدكتور حسن ابراهيم حسن .

(٣) ص ٣ ـ ٢ من البيان المغرب ـ المراكشي ـ والبلاذرى في فتوح البلدان ص ٢٣٩ وعن ابن خرداذبه فى المسالك والممالك ص٩٠ : « أصلها الاشبان وهم قوم دخلوا الاندلس بعد ـ الاندلش ـ كما فى صبح الاعشي وسميت بهم اشبيلية ثم ظهر باشبيلية ـ اشبان ـ وهو فلاح وقيل ـ اصبهان ـ لانه ولد فيها فتغلب على الاندلس وباسم اصبهان ـ سمى اهل قرطبة ـ بالاسبان »

المدنية المعروفة بالجزيرة الخضراء فصلى الصبح فيها وعقد الرايات لأصحابها(١) وكان الامبراطور « رودريك »(٢) مشغولا بقمع ثورة في الشمال، فلما عرف بغارة العرب أدرك خطرها وأسرع لانقاذ بلاده فجمع جيشاً كبيراً بلغ عدده زهاء « مائة ألف » مقاتل ، ولما رأى طارق كثرة جيش العدو طلب المدد من موسى بن نصير فأمده « بخمسة آلاف »والتقى الجيشان على ضفاف وادي بكه (*Wady Bekka*) (٣) فدل طارق وجنده على العدو وهزمه في موقعة حاسمة وقتل رودريك « لذريق» . وبعد أنتصاره أخذ يزحف بجنده على مدن اسبانيا : فاستولى على أشبيلية *Seville* وقرطبة *Gordova* وطليطلة (٤) *Toledo* وتبعه موسى بن نصير ليتما الفتح ، وفي سنة ٩٦ هـ

(١) ص٧ ـ المعجب ـ المراكشي ـ ليدن .

(٢) رودريك *Roderic* او لذريق ص٦ ـ الروض المعطار ـ «لم يكن من ابناء الملوك ولا بصحيح النسب في القوط وانما نال الملك من طريق الغصب والتسور عندما مات غيطشة الملك . »

وكان أثيراً لديه فاستصغر أولاده واستمال طائفة من الرجال وانتزع الملك من ولد غيطشة وفي تاريخ الاسلام السياسي للدكتور حسن ابراهيم حسن ان غيطشة عزل من منصبه وتولى مكانه آخيلا ثم عزل وعين رودريك قائد الجيش القوطي من قبل النبلاء ورجال الكهنوت

(٣) ص٤٨٦ جـ١ تاريخ الاسلام السياسي ـ الدكتور حسن ابراهيم حسن

٤ الحلل السندسية ص ٣٧٠، ٢٧٠، ١٠٣،١٠٢ طليطلة *Toledo* مركز لجميع بلاد الاندلس وكانت في ايام الروم مدينة الملك ومداراً لولاتها وبها وجدت مائدة سليمان بن داود مع جملة ذخائر ، ولمدينة طليطلة بساتين محدقة بها وانهار جارية مخترقة ودواليب دائرة وجنات يانعة وفواكه عديمة المثال ولها من جميع جهاتها أقاليم رفيعة وقلاع منيعة تكتنفها وعلى بعد منها في جهة الشمال =

عاد « موسى » إلى دمشق بدعوة من الوليد فحمل معه مائدة عظيمة أهداها إلى الخليفة الوليد وترك مكانه والياً على الاندلس ابنه « عبد العزيز » ومعه حبيب بن أبي عبدة بن عقبة بن نافع وزيراً له ومعيناً فاتخـــذ عبد العزيز (اشبيلية) مركزاً لادارة اعماله ثم تزوج أرملة (لذريق) واسمها (أيله) وذكر أن عبد العزيز ضبط سلطان الأندلس وسد ثغورها وافتتح مدائن كثيرة وكان من خيرة (١) الولاة ، فنظم الحكومة وكون مجلساً خاصاً لاستنباط الاحكام الشرعية التي تتفق وحالة السكان وعني بالزراعة وتنظيم الطرق ورفع عن الاسبانيين مظالم القوط ، فخفف الضرائب عن كاهلهم وســاوى فيها بين الطبقات من غير تفرقة في الدين والجنس (٢) إلا أن مدته لم تطل لوثوب الجند عليه وقتلهم له لاشياء نقموها عليه ثم تتابع على الأندلس ولاة من العرب فكانوا يعينون من قبل الخليفة في الشام أو من قبل عامله بالقيروان والذين ذكروا من ملوك الاندلس من لدن الفتح الى آخر ملوك بني أمية من غير موارثة أفراداً عددهم عشرون فيما ذكر ابن سعيد ولم يتعدى في السمة لفظ الامير (٣) ، فلم يدع أحد منهم بامير المؤمنين تأدباً من الخلافة بمقر الاسلام الى عبد الرحمن الناصر وهو ثامن بني أميه بالأندلس فتسمى بأمير

= الجبل العظيم المتصل المعروف بالشارات وهو يأخذ من ظهر مدينة ســالم وفي جبالها معاون الحديد والنحاس .

(١) ص ٣٠ ج ٢ البيان المغرب ـ المراكشي

(٢) ص ١٨٨ ج ١ تاريخ الاسلام السياسي ـ الدكتور حسن ابراهيم حسن

(٣) ص ١٤٠ ج ١ نفح الطيب ـ المقري

المؤمنين وتوارث اللقب بنو عبدالرحمن الناصر واحد بعد واحداً حتى تلاشت الخلافة وذلك لغطرسة الحرس الخليفي وبغيه واطماع الولاة وانحلال شعب فقد حبه وولاءه للأسرة الحاكمة القديمة، والأحزاب التي تقاسمت أشلاء الدولة وقادتها بذلك الى الدمار لم تمت بذهاب الدولة الاموية وانما كان ذهابها في الواقع بدء النضال فيما بينها (١)، وهنا لابد لنا ان نذكر ما كانت عليه الأندلس في أحوالها الداخلية والخارجية تحت حكم الولاة الأمراء، وتحت حكم الخلفاء أمراء المؤمنين .

(١) ص ٣٠ ج١ فصل ٢ يوسف اشبخ ترجمة وتعليق :- محمد عبدالله عنان



ملاقاة موسى بن نصير مع طارق بن زياد بارض طليطلة
ص ٤٥٦ ج ١ الحلل السندسية (شكيب ارسلان) من كتب اياد محي الدين



القسم الثاني

الناحية الادارية :

كان الامير أو الخليفه هو الرئيس الاعلى للدولة وقد ذكر مجازاً باسلطان(١) وكان الوزراء كما كان الشأن في الشرق يتولون ادارة الحكومة وتجمع الحكومة بين السيادتين الروحية والسياسية ممتزجتين في سمة الخلافة ، وكانت الوزراة في زمن بنى أمية مشتركة في جماعة يعينهم صاحب الدولة للاعانة والمشاورة ويخصهم بالمجالسة ويختار منهم شخصاً لمكان النائب المعروف بالوزير فيسميه بالحاجب « ٢ » فقسموا الوزارة الى أربعة أقسام ، اختص بكل واحد منها وزروهم :

(١) وان كانت كلمة السلطان مستعملة في الشرق فقط منذ القرن الرابع الهجري الا انها جاءت في تاريخ الاندلس مطلقة وعلى سبيل المجاز في عدة مناسبات فقد جاء في نفح الطيب ص٩٨ جا « اول ما نقدم الكلام على قاعدة (السلطنه) بالاندلس . . . »

وجاء في ص٩٩ منه أيضاً « كانت (سلطنة) الاندلس في صدر الفتح على تقدم من اختلاف الولاة عليها من (سلاطين) أفريقية . . . » وجاء في الحلل السندسية ص٤٩ ـ ٥٠ جا في وصف مدينة الزهراء « الا من أراد ان يبنى داراً أو يتخذ مسكناً بجوار (السلطان) فله اربعمائة درهم . . . »

(٢) ص ١٠١ جا نفح الطيب (المقري) .

(١) وزير الماليه «صاحب الجباية» ويتولى تحصيل الضرائب والأموال وصرفها (١) .

« ٢ » وزير الخارجية ، وكان ينظر في أحوال أهل الثغور .

« ٣ » وزير إدارة القضاء والنظر فى حوائج المتظلمين .

« ٤ » وزير لادارة الجيش ودفع رواتبه .

ويظهر أن مستشارى السلطان كانوا يدعون أيضاً بالوزراء (٢) ولكنهم لاجل أن يميزوا الوزراء الذين كانوا يديرون شئون الدولة عن أعضاء مجلس الخليفة ، كانوا يسمون الوزير من القسم الاول بالوزير ذي الوزارتين (٣) وكان كبير الوزراء يسمى « بالحاجب » (٤) وهو يتصل بالسلطان ويتلقى منه

---

(١) ص ١٩٩ تاريخ العرب في اسبانيا (محمد عبد الله عنان) .

(٢) ص ٤٨١ مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامى « أمير على »

«٣» أطلق هذا اللقب على بعض الوزراء - ويقصد بذلك الجمع بين سلطتي السيف « الحرب » والقلم او وزارة الحربيه ووزارة الداخلية ، وراتب هذا الوزير هو ضعف راتب الوزير الاعتيادي وجاء في نفح الطيب ص ١٠١ « صار الوزير الذي ينوب عن الملك يعرف بذى الوزارتين واكثر ما يكون فاضلا في علم الادب وقد لا يكون كذلك بل عالماً بأمور الملك خاصة »

«٤» جاء في دائرة المعارف الاسلامية باب الحاجب ص ٢٣١ مايلي « ذهب ابن خلدون في تفسير هذا اللفظ تفسيراً نظرياً بقوله أن على الحاجب ان يصرف عن الحاكم الزوار الذين يضايقونه حتي يوفر له الهدوء فينصرف الى اعماله الهامه وفى الممالك الغربية كقرطبة كثيراً ما كان يصبح الحاجب ممثلا للخليفة وكبيرا لوزرائه ، وكان ملوك الطوائف يتلقبون بالحاجب ، وكانوا في الواقع ملوكاً مستقلين في الاندلس وفى عهد الحفصيين كان الحاجب يتولى وظيفة الناظر ووزارة الحرب وكان هو الوالي =

الاوامر وكانوا يجلسون في إيوان واحد ، غير ان كرسي الرئيس كان أعلى كراسي بقية الاعضاء ، أما المستشارون الخاصون فكانوا كالوزراء يجلسون مع الخليفة في ايوان الخلافة ، وكان ثمة وكلاء أو كتاب دولة وهم على ضربين أعلاهما كاتب الرسائل وله حظ في القلوب والعيون عند أهل الاندلس وأشرف اسمائه « الكاتب » وبهذه السمة يخصه من يعظمه في رسالة وكاتب الزمام وكان يعهد اليه العناية بالذميين (١) ، وآخر يعهد اليه الاشراف على الحسابات العامة ويسمى « صاحب الاشغال الخارجية » ويعتبر في الاندلس أعظم من الوزير واكثر أتباعاً وأصحاباً واجدى منفعة فاليه تمد الاعناق ونحوه تمد الاكف والاعمال وكان منصبه يعادل اليوم منصب « وزير المالية » اذ كانت وزارته تختص بقبض الدخل وفرض الضرائب وصرف

= الحقيق باعتباره أكبر الموظفين ، وفي عهد بني زيان كان المهيمن على شئون القصر ووزير المال ، اما في الممالك الشرقية (بلاد مابين النهرين وسوريا ومصر) فقد كان للحاجب في البلاط مركز الامين « رئيس تشريفات » وهذا اللقب يمنحه حتى لو خدم الوالي أميراً لجيشه . وفي عهد المماليك كانت اعماله تخالف هذه تمام المخالفه فقد عهد الى أمير الحجاب أو حاجب الحجاب في عهد بيبرس بفض المنازعات بين الامراء والجند تخفيفاً لاعباء حامل السلطان في القاهرة وفي الاقاليم وربما كان الغرض من ذلك الحد من نفوذه ، فلما الغي بعدئذ منصب والى السلطان في القاهرة وضع الحاجب على راس المجلس الاداري الحربي في عهد السلطان الناصر محمد واولاده وكان يتبادل المشورة مع السلطان في المسائل العسكرية وبمرور الزمن لم يقتصر الحاجب على ابداء الرأي في المسائل الحربية بل أخذ يتعدى سلطته فيفتات أيضاً على المسائل المدنية التي كانت من اختصاص القاضي .

(١) كان للذميين في المشرق ديوان يعني بشؤونهم يعرف بديوان الجوالي .

النفقات ، وكان يسمى صاحب هذه الوظيفه في مملكة غرناطة « بالوكيل »
وكان منصب القاضي في اسبانيا كبيراً وهو اعظم منصب عند الخاصة والعامة
لتعلقه بامور الدين وكون السلطان لو توجه عليه حكم حضر بين يدي القاضي
هذا في زمن بني أمية ومن سلك مسلكهم(١) وكان يسمى قاضي القضاة « قاضي
الجماعة » ويسمى رئيس الشرطة « صاحب الشرطة » ويعرف صاحبها عند
العامه بصاحب المدينة وصاحب الليل وإذا كان عظيم القدر عند السلطان كان
له القتل لمن وجب عليه دون استئذان السلطان ويكون في حضرته وهو
الذي يحد على الزنا وشرب الخمر وكثير من الامور الشرعية تقرر عليها رضا
القاضي (٢) أما المحتسب(٣) فوظيفته الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، كما
كان يعزر ويؤدب ويراقب الغش والتدليس في أمور المعيشة والمكاييل والموازين
ولهم في الاحتساب قوانين يتداولونها ويتدارسونها كما تتدارس احكام الفقه
وكان حراس الليل يحملون الاضوية طول الليل ويسمون (بالدرابين) لان
بلاد الاندلس لها دروب باغلاق تغلق بعد العتمه ولكل زقاق بائت فيه له
سراج معلق وكلب يسهر وسلاح معد وكان يسمى القائد البحري (أمير
الماء)

---

(١) ص١٠١ ج١ نفح الطيب (المقري)

(٢) ص ١٠١ ج١ نفح الطيب ايضاً (المقري) .

(٣) ان يكون من اهل العلم والفطن وان يكون قاض والعادة فيه ان يمشي بنفسه راكباً على الاسواق مع أعوانه .

القسم الثالث

الحالة الاقتصادية والاجتماعية

ازدهرت الزراعة في الاندلس لاعتدال هوائها وخصوبة تربتها ، وان أراضي السهول منها مستوية ونباتاتها جامعة بين صفات نباتات أفريقية واوربا ، فجعلوا فلاحة الارض علماً قائماً بذاته وعرفوا ملاءمة التربة والطقس لزراعة النباتات المختلفة ، فزرعوا أنواع الحبوب والخضروات ومختلف أنواع الفاكهة كذلك استغلوا موقع كل منطقة وزرعوا فيها المزروعات الملائمة كاحراش النخيل والكروم ، والزيتون ، وقد أقيمت في جميع أنحاء البلاد القناطر الكبيرة وحفرت الترع والمصارف العديدة لاستجلاب الماء وتوزيعه بالطرق الفنية (١) واستخدم العرب أتقن وسائل الهندسة المائية لجلب الماء واسالته في كل مكان وعثر العرب عن ينابيع مياه تحت الارض فشقوا الخلجان في الصخور الصماء وانشأوا قناة ماء تحت الارض في مدينة *Moravilla* طولها ميل واحد وعرضها ثلاثون قدماً ، وكانوا يعرفون مبادئ جلب المياه بالمص فاستعملوا المصاصة على نطاق واسع في جلب المياه (٢)

---

(١) ص ٤٨٢ مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامي ❖ أمير علي ❖

(٢) ص ١٨ جوزيف ماكيب في كتابه ❖ *Splendour of moorish spain* ❖ ترجمة عبد المسيح وزير

وكانت صناعة الفولاذ شائعة ومنها صناعة السيوف كما شاعت صناعة الحرير والقطن والمنسوجات الصوفية ، ومهروا بالاخص في الصباغة وصناعة الخزف ودباغة الجلود والنقش عليها وصباغتها وفيها يعانون صبغه بدائع بحشائش تختص بالاندلس تصبغ بها اللبود المغربية الثمينة (١) .

وكانت صادراتهم تشتمل على : الذهب ، والفضة ، والنحاس ، والحرير الخام والمصنوع ـ دودة القز ، والزئبق ، وحديد الزهر ، والزيتون ، والمصنوعات الصوفية ، والعنبر ، وصمغ العنبر ، وحجر المغناطيس ، والبلور ، والزيت ، والسكر والاحجار الكريمة . وكان الناس يتداولون المال بوفرة وكان ذلك المال نقوداً مضروبة ضرباً جميلا ومما قاله ابن حوقل النصيبي لما دخل الاندلس مدة خلافة بني مروان قال : « فما يدل بالقليل منه على كثيره ان سكة دار ضربه على الدراهم والدنانير دخلها في كل سنة « مائتا الف » دينار وصرف الدينار سبعة عشر درهما ، هذا الى صدقات البلد وجباياته وخراجاته وأعشاره وضماناته والاموال المرسومة على المراكب الواردة والصادرة » واما الحالة الاجتماعية فانها في العصر الاسلامي ورثت سوء نظام الطبقات قبله من حيث تفاوت طبقات المجتمع وماتبعها من افراد اكثر رجال الاشراف والكنيسة الى الشمال وانصفوا طبقة اليهود في المجتمع الاسلامي كعنصر له شأنه واما طبقة العبيد ورقيق الأرض فرأوا في الاســـلام منقذاً لهم

---

(١) ص ٤٨٣ مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامي « امير علي »
(٢) ص ٩٨ ج١ نفح الطيب « المقري » .

فايدوه وأسلم معظمهم ولكن المجتمع الاندلسي فى العصر الاسلامي صار معقداً أكثر من ذى قبل فكان العرب والبربر والبلديون والعرب مضريون ويمانيون .

فهذه العناصر المتباينة ساعدت على ايجاد حضارة عربية اسلامية زاهرة كما انها كانت سبباً في انهيار تلك الحضارة بسبب التطاحن الذي وقع فيما بينها ، وكانت قواعد أهل الاندلس في ديانتهم تختلف باختلاف الأوقات والسلاطين والأغلب عندهم إقامة الحدود وانكار التهاون بتعطيلها وقراءة القرآن بالقراآت السبع ورواية الحديث ولا يوجد سائل في الاندلس إلا معذوراً لان الصحيح القادر على الخدمة إن رأوه يسأل احتقروه وأهانوه والذي لا يوفق للعلم يحاول ان يمتهن حرفة يتعيش بها حتى لا يكون عالة على الناس وأما زي أهل الأندلس فالغالب عندهم ترك العمائم لاسيما فى شرق الاندلس (١) وقد أخذ سلاطينهم وأجنادهم يقلدون النصارى المجاورين لهم في أزيائهم وكانوا يهتمون بنظافة ملابسهم والاعتناء بفروشاتهم وأما آلات حربهم فهي : التراس والرماح الطويلة ولم يعرفوا الدبابيس ولا قسي العرب بل كانوا يعدون قسي الافرنج للمحاصرات فهم أصحاب جهاد متصل (٢) .

(١) ص ٤٨١-٤٨٢ دائرة المعارف (البستاني)
(٢) ص ٤٨٣ دائرة المعارف (البستاني) ايضاً .

القسم الرابع

الحالة الثقافية والفنون الجميلة :

إن عرب الأندلس فاقوا جيرانهم النصارى في الريازة حتى انها صارت فناً خاصاً بهم وفي صناعة نحت التماثيل والتلوين وكانت قصور الخلفاء في قرطبة وبالأخص الزهراء مزينة بالتماثيل والالوان الجميلة ، كما تشهد تماثيل السباع فى الحمراء على تلك البراعة . أما ثقافتهم فقد كانت على جانب كبير من التقدم إذ لم تخل حتى المدن الصغيرة من الكليات أو المدارس بينما كان للمدن الكبيرة الأخرى أمثال قرطبة ، ومالقة ، وأشبيلية ، وسرقوسة ، ولشبونة «١» جامعات تتمتع بمركز ممتاز في جميع أنحاء العالم ، والعلم فريضة على كل مسلم ومسلمة والجاهل الذي لم يوفق للعلم يجهد أن يتميز بصنعة ، وكان الشعر معتبراً عندهم وللشعراء من ملوكهم وجاهة ولهم عليهم حظ ووظائف ، ومن جملة من تألق نجمهم من العلماء والادباء والأديبات : ابن حيان ، وابن العيار ، وابو عبدالله البكري ، وابن بشكوال ، وابن الصعيد ، وابن الخطيب ، وابن باجه ، وابن طفيل ، وابن رشد ، وابن عبدربه ، وابو القاسم عباس بن فرناس حكيم الاندلس ، والادريسي جغرافيهـــا والزبيدي والعاصمي ، ومن اللواتي تألق نجمهن بثينة زوجة المعتمد وابنته ، وكانتا تحتلان أسمى مكانة بين العلماء والأدباء ، وتفرغ الكثيرون من العرب

(١) ص ٤٨٤ ، ٤٨٥ ، ٤٨٦ مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامي (امير علي).

للأدب والعلم والتاريخ والطب وكان الخليفة عبد الرحمن الناصر والحكم الثاني (المستنصر) وابن أبي عامر يشوقونهم الى ذلك ويمضون الساعات الطوال في مناقشة العلماء وجمع الكتب النادرة وتوزيع الهبات عليهم .

القسم الخامس

الحالة السياسية والدبلوماسية : ـ

كان العداء مستحكماً بين المضرية واليمانية ، وبين العرب والبربر ، وبين العرب والبلدتين وبين المسلمين ونصارى الشمال والفرنج . كان هذا العداء العنصري يمزق أوصال المملكة ، لذا كانت المقاطعات المختلفة تثور بزعامة كل من يريد الاستقلال بمقاطعته عن الدولة المركزية طمعاً بالامارة ، وكانت الثورات والاستقلال بالمقاطعات بين المد والجزر تبعاً لرئيس الدولة الأعلى فان كان ضعيفاً ثارت عليه الامارات طمعاً في الغنم والسلطة ، وإن كان قوياً بطاشاً خمدت ثورة الأمراء والطامعين وتشتت شملهم . والعوامل دينية تستر وراءها اتجاهات سياسية متمثلة في حركة سجن ابن يحي الليثي ، ولعوامل عنصرية بين البربر والعرب والصقالبة ، وتأثير العصبية القبلية بين العرب أنفسهم ، ظلت الأندلس بركاناً ثائراً إلى أن هيأالله لها الخليفة ابو المطرف عبد الرحمن (١) الناصر لدين الله وكان بحق أعظم خلفاء المسلمين

---

(١) ص ٢ ، ١٥٧ تراجم اسلامية ، شرقية واندلسية (محمد عبدالله عنان) ـ حيث قال : كانت أمه جارية اسبانية نصرانية تدعى (ماريا) أو (مزنه) حسبما تسميها الرواية العربية ، فنشأ الطفل اليتيم في كفالة جده الامير عبدالله بن محمد بن الرحمن مرموقاً بعين العطف والرعاية وما كاد يبلغ أشده حتى ظهرت نجابته وأبدى بالرغم من حداثته تفوقاً في العلوم والمعارف الى درجة تسمو على سنه ، فدرس القرآن والسنة وهو طفل لم يتجاوز العاشرة ، وبرع في النحو والشعر والتاريخ ، ومهر بالأخص في فنون =

في المغرب وفي طليعة الملوك قوة وعزيمة وسعة إدراك وحسن سياسة ، ومن أنهضهم بالاعباء واكثرهم تضحية بالراحة في سبيل توطيد الملك وتركيز السلطة ، وقد ولي إمارة الاندلس وسنه لاتتجاوز الثانية والعشرين(١) ولكن بدهائه وعزمه الذي لايلين ومثابرته الدائبة تمكن من استرداد ملك آبائه واستعادة أملاكهم وحصر السلطة كلها في يده ، وكان مستبداً عادلا ، فاخذت تعود الى البلاد رفاهيتها ومظاهر مجدها وحضارتها ومن اهم الخطط التي التزمها عبد الرحمن الناصر عمله على انتزاع السلطة من يد أمراء العرب الذين أساءوا استعمالها ، وكان يقصد من وراء ذلك الى محاولة مزج شعوب شبه الجزيرة لتتكون منهم أمة واحدة متحدة الغاية ، ومن ثم كان يحاول القضاء على الفوارق القبلية لتقوم مكانها فوارق الطبقات والاحوال ، لذلك نظم جيشاً لحماية الدولة اكثره من

= الحرب والفروسية وأقبل عليه جده الأمير يخصه بحبه وثقته ويرشحه لخلافه المهام وينديه للجلوس مكانه في بعض الأيام والأعياد وما كاد الأمير عبدالله يلفظ انفاسه الأخيرة حتى بويع حفيده عبدالرحمن بالملك وكان أول من بايعه أعمامه وأعمام أبيه ، وهو أول من تسمى بسمة الخلافة من الأمويين في الأندلس ليسترد بذلك تراث اسرته الروحي ، وانه بما وفق اليه من النهوض بالدولة الاسلامية وتوطيد أركانها أحق بألقاب الخلافة من دولة منحلة في المشرق « الدولة العباسية » وأخرى طارئة « الدولة الفاطمية في أفريقية » ونفذ الامر في ذي الحجة سنة ٣١٦ هـ .

(١) ص ١٨ ـ اعلام الاسلام « علي أدهم » .

الصقالبة (١) الذين فاق عددهم في عهد الناصر أي عهد آخر فقيل ان من كان في البطانة والقصر يزيد على الثلاثة آلاف. وكانوا يشبهون المماليك الذين استجلبهم صلاح الدين الى مصر (٢) ومع كل ذلك كان يتهدده خطران عظيمان وهما مملكة ليون *Leon* في الشمال والخلافـة الافريقية التي انشأها الفاطميون ، فحارب المسيحيين في الشـمال وانتصر على مملكتي ليون *Leon* ونافار *Basque Navarra* إنتصارات باهرة وشرع سراً في مساعدة الأمراء الذين يقودون قبائل المغرب الاقصى واتفق مع محمد بن خزر رئيس قبيلة مغراوة التي هزمت جيوش الفاطميين وطردتهم من المغرب الاوسط وأرغمت هذا الاقليم على الطاعة للامويين، وكذلك استولى الناصر على حصن (سبتة) على شاطئ افريقية ، وبذلك ضمن سلامة الاندلس من الخطر الثاني وكان أكبر همه بالأضافة الى ماقام به من الاعمال الحربية متجهاً الى تشييد المباني العامة واقامة الحصون ، وبنى مدينة الزهراء(٣)على مسافة ثلاثة اميال شمالي

---

(١) كانت كلة الصقالبة تطلق في الاندلس على الاسرى والخصيان من الاجناس الصقلبية « السلافية » الحقيقية ثم غدت تطلق بمضي الزمن على جميع الاجانب الذين يخدمون في البطانة وفي القصر . (٢) ص ٢٠ ـ اعلام الاسلام (على ادم) .

(٣) ص ٤٩ ـ ٥٠ ج١ الحلل السندسية (شكيب ارسلان) ـ ان عبد الرحمن الناصر ابتناها الى غرب قرطبة في سفح جبل يعرف بجبل (بطاش وخط فيها الأسواق ، وابتنى الحامات والخانات والقصور والمتنزهات واجتلب الى ذلك بناء العامة وأمر منادياً بالنداء : « ألا من اراد أن يبني داراً أو يتخذ مسكناً بجوار السلطان فله اربعمائة درهم » فتسارع الناس الى العمارة فتكاثفت وتزايدوا فيها فكادت ان تتصل الأبنية بين قرطبة والزهراء ، وللزهراء مسجد جامع دون جامع البلد في الحل والقدر والكبر وعلى سورها سبعة ابواب حديد وليس لها نظير بالمغرب فخامة حال وسعة تملك .

غربي قرطبة لتكون مقراً له(١)وكان عصر الناصر من أحفل العصور بصلات الاسلام والنصرانية ، فكانت ثمة معاهدات وسفارات وعلائق سياسية بين قرطبة ومعظم الامم النصرانية وتوالت وفود ملوك النصرانية يومئذ على بلاط قرطبة ينشدون الحلف والصداقة والمهادنة من زعيم الاسلام في الغرب ففي صفر سنة ٣٣٦ هـ (٩٤٨ م) وفدت على الناصر رسل قسطنطين السابع امبراطور قسطنطينية المعروف (بيورفير وجينتوس) بهدية ثمينة واحتفل الناصر بقدومهم في يوم مشهود زين فيه القصر الخلافي بابدع زينه وركبت العساكر في اكمل نظام وجلس الخليفة على عرشه الفخم يحف به اعضاء الاسرة المالكة والوزراء والحجاب واقبل الرسل فبها لها مارأت من بهجة الملك وفخامة السلطان ، ولما انصرف رسل الامبراطور بعث الناصر معهم سفيره (هشام) بن هذيل بهدية حافلة ليؤكد المودة ويوثق عرى التحالف بين المملكتين ، وما هذه الاتجديداً لعلائق الدولة البيزنطية مع دولة الاسلام بالاندلس وتوطيداً للصداقة القديمة . وقد ترمي أيضاً الى تنظيم الخطط المشتركة لمقاومة الدولة الفاطمية الفتية التى بدأت تزعج البيزنطيين في في اواسط البحر الابيض المتوسط وتزعج حكومة قرطبة بتوغلها في المغرب الأقصى ثم توالت سفارات ملوك النصرانيه بعدئذ على الناصر ، فوفدت عليه رسل ملك الصقالبه بطرس الكبير ملك بلغاريا فاحتفل بقدومه وبعث معهم (ربيعاً) ربيعا الاسقف سفيراً الى ملكهم ، ثم وفدت رسل ملك فرنسا وهو يومئذ لويس الرابع في طلب الصداقة والمودة فاجابهم الى ماطلبوا (٢)

(١) ص ٦٩١ ـ دائرة المعارف الاسلامية (باب بنو امية)

(٢) ص ١٦٦ـ١٦٧ـ١٦٨ـ من تراجم اسلامية شرقية واندلسية (محمد عبدالله عنان).

ان هذه الدبلوماسية في العلاقات الدولية كأحدث مايكون من علاقات بين الدول حتى الحديثة منها في العصر الحاضر .

مات الخليفة عبد الرحمن الناصر فى شهر رمضان عام ٣٥٠ هـ (٩٦١م) وعمره ٧٣ سنة بعد أن حكم البلاد نصف قرن كامل (١) وترك من البنين أحد عشر ولداً منهم ولي عهده وخلفه الحكم الثانى المستنصر بالله وقام باعباء الملك أتم قيام وكان ملكا ورعاً وعالماً يقترن اسمه خاصة بمسجد قرطبة لانه وسعه وزينه بالزخارف ، وانفق عليه مبالغ طائله وأحضر له مهرة الصناع وغالي المواد من بلاد البحر الابيض المتوسط ومن بوزنطة .

وبموت عبد الرحمن الناصر نقض بلاط ليون *León* ونافار *Navarra* شروط المعاهدة المعقودة بينهما وبين الناصر ظناً منهما أن الفرصة سانحة لهما ولكن الحكم الثانى ارغمهما على طلب الصلح ، إذ لم يكن الحكم الثانى بالرجل الضعيف أو القليل الشعور بالتبعة ، ولم يظل متفرجاً كذلك أمام مايقع في شمال اسبانيا وفى أفريقيا من أحداث ، واستقبل أخا سنكو واسمه (أوردونو) الشقي استقبالا فخما وصار بالتدريج راعياً لكل الامراء المسيحيين في الشمال وكانهم ولاة يتبعون له وكان ساعده الايمن فى السياسة حاجبه المصحفي وكبار الصقالبة ولعله اسرف فى الثقة بهم اسرافاً يستحق عليه اللوم . ويمتاز عهد الحكم الثاني بتجدد محاولة النورمانديين للدخول في اسبانيا عام ٣٥٥هـ (٩٦٦ م) (٢) ومما يؤخذ على الحكم الثانى كثرة الاشتغال بمطالعاته الى

---

(١) ص ٤٣٢ ـ مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامى (امير على)
(٢) ص ٦٩١ ـ دائرة المعارف الاسلامية (باب بنو أمية)

حد أبها ألهته عن الولع بالغزوات والفتوح وأعتقد ان تقدم السن لها تأثير كبير علي ذلك، وقد كان الحكم الثاني أغزر الخلفاء والأمراء الأمويين علماً وأوسعهم إطلاعاً، كان محباً لأهل العلم عالماً فقيهاً في المذاهب، عالماً بالانساب والتواريخ جماعاً للكتب والعلماء مكرماً لهم محسناً اليهم أحضرهم من البلدان البعيدة ليستفيد منهم ويحسن اليهم (١)، كان يخاف الله ويقبل العظة ويرجع عن الخطأ عند اكتشافه :ـ

وقصة المرأة (٢) التي حدثه بها ابن بشير القاضي لأكبر دليل على ورعه وتقواه إزدهرت العلوم والفنون والفلسفة وكثرت المدارس في زمانه، وقد ولي الحكم الثاني المستنصر بالله الخلافة وهو يقارب الخمسين ودامت إمارته خمس عشرة سنة وخمسة أشهر وكان عمره ثلاثاً وستين سنة وسبعة أشهر

---

(١) ص ٣٩٨ ج ٨ الكامل « ابن الاثير » ليدن.

(٢) ص ٦٤ ج ٢٢ نهاية الأرب فى فنون الأدب « النويري » جاء فيه : ان امرأة منقطعة كان لها ارضية تجاور بعض قصور الحكم فاحتاج اليها ليبني فيها شيئاً مما أراد بناءه فساومها الوكيل فى البيع فامتنعت فاخذها الوكيل قهراً وبنى فيها منظرة بديعة وأنفق عليها جملة وافرة فوقفت الامرأة لأبن بشير القاضي وقصت عليه قصتها فركب حماره وجعل عليه خرجاً كبيراً لا يطيق حمله الا جماعة من الرجال وقصد الزهراء والمستنصر فى تلك المنظرة فدخل عليه فقال : ما جاء بالقاضي فى هذا الوقت فقال : أريد ملأ هذا الخرج من تراب هذا الموضع فعجب منه الحكم وأمر فلىء الخرج ثم خلى القاضي به فقال : اذل عليك اذلال العداء على الملوك الحلماء الا ينقل هذا الخرج على الحمار الا أنا وأنت فضحك الحكم وقال كيف نطيق ذلك أيها القاضي فبكى ابن بشير وقال : كيف تطيق أن تطوق هذا المكان أجمعه من سبع أرضين في خلق وخالقك يوم القيامة وانا شريكك في الاثم ان رضيت هذا الحكم وقص عليه القصة فبكى الحكم وقال وعظت فأبلغت أيها القاضي ثم خرج عن المكان وسلمه الى الامرأة بكل ما بني فيه وغرس.

وكان أصهب أعين أقنى عظيم الصوت ضخم الجسـم أفقم(١) . ولم يرزق الحكم الثاني ولداً قبل تقلده الخلافة بل كان قد يئس من الأولاد ، وفي سنة ٣٥١ هـ (٩٦٢ م) ولد له مولود ذكر من حظيتـه (صبح)(٢) فسماه عبدالرحمن فسر به سروراً عظيما ، وفي سنة ٣٥٣ هـ (٩٦٤ م) ولد له هشام فلما بشر الخليفة بطلوعه وجعفر المصحفي عنده إرتاح لارتياحـه وقال على البديهة :

إطلع البدر من حجابه واطّرد السيف من قرابه
وجاءنـا وارث المعالي ليثبت الملك في نصابـه
بشـرنا سـيد البرايا بنعمـة الله في كتابه
لو كنت أعطي البشير نفسي لم أقض حقاً لما أتى به (٣) .

وسمت مكانة السيدة صبح في نفس الخليفة الحكم الثاني وعظمت سيطرتها عليه وقوى امتلاكها لقلبه ولم تلبث ان استأثرت لديه بكل نفوذ ورأى ، بيد أنها كانت وافرة الذكاء والحزم بارعة في تدبير الشئون مخلصة لسيدها تعاونه في تدبير مهام الحكم ، وكانت صاحبة السلطان المطلق تولي وتعزل الوزراء والقادة وتدير شئون السلام والحرب لذلك كان يهابها الوزراء والقادة ويرجون رضاءها . وفي سنة ٣٥٦ هـ (٩٦٦ م) أرادت ان تعين وكيلا لأملاك ابنها عبدالرحمن فأبلغت الحكم هذه الرغبة ، فأوصى الحكم حاجبه

---

(١) ص ٣٩٨ جـ ٨ الكامل « ابن الأثير » ليدن
(٢) جارية أي أم ولد « اعلام الاسلام » - وقيل ملكة « مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامي » امير علي
(٣) ص ٢٧ - اعلام الاسلام « علي ادهم » .

المصحفي بالبحث عمن يصلح لهذا المركز فوجد المصحفي أن الفرصة سانحة لتحقيق ما وعد به القاضي محمد بن اسحق بن نقل ابن أبي عامر فرشحه مع آخرين للوكالة فوقع الاختيار عليه من قبل السيدة صبح بعد أن استرعى نظرها بطلعته البهية والرجولة الكاملة والعزم الناهض(١) فاقر الحكم اختيارها ونصبه لخدمتها وخدمة ابنها عبدالرحمن ، وأجـــرى عليه في ذلك الوقت خمسة عشر ديناراً في الشهر مرتباً له .

(١) ص ٢٨ ـ اعلام الاسلام « علي ادهم » .

الفَصْلُ الثّانى

التلميذ الطموح

في يوم صفت سماؤه وتناثرت أنواره ، ورق نسيمه ، وغردت أطياره ، ذهب أربعة من الطلاب يتنزهون ويروحون النفس فى حدائق قرطبة وإنهم ليتجاذبون أطراف الحديث ويستنطقون صحائف المستقبل الغامضة كما هو شأن التلامذة في كل حين ، إذ قام من بينهم فتى ذو خيال واسع خصب وفراسة في الزمان وقال لرفقائه كما قال الحميدي عن الفقيه ابو محمد علي بن احمد حيث قال : « ليختر كل واحـــد منكم خطة أوليه إياها إذا أفضى إلي الأمر (١) » فقال أحدهم وكأنه تفرس للمستقبل القريب ـ توليني قضاء كورة (رية) (٢) وهي مالقة (*Malaga*) وأعمالها ، فانه ليعجبنى هذا التين الذي يجيء منها ، وقال آخر : توليني حسبة السوق فاني أحب هـــذا

(١) ص ١٨ ـ المعجب في تلخيص اخبار المغرب (عبدالواحد المراكشي) ليدن

(٢) هي كورة من كور الأندلس واسعة خصبة ومدينتها (أرجدونه) ومنها كان عمر بن حفصون الخاوج على بنى امية ـ ص ١١٠ كتاب صورة الأرض (ق ١ ابن حوقل ـ ليدن) . ومما جاء فى بغية الملتمس (للضبي) ص ٢٧٧ ـ وهي بقبلي قرطبة وشرقي الجزيرة وهي من الكور المجندة نزلها جند الأردن من العرب وهى كثيرة الخيرات والبركات ، ومالقة وهي قاعدة (رية) وهي مدينة حسنة حصينة ويعلوه جبل يسمى (جبل فارة) *Gibral - Faro* ولها قصبة منيعة وربضان لا أسوار لها وبها فنادق وحمامات وبها من شجر التين ما ليس بأرض ويقول الشاعر فيه :

مالقة حييت يا تينها ... السفن من اجلك يا تينها

ص ١٢٩ ج ١ الحلل السندسية (شكيب ارسلان) .

الاسفنج ، وقال الثالث مستهزئاً : إذا أفضى اليك الأمر يا صاح فأمر أن يطاف بي قرطبة على حمار ووجهي إلى الذنب وأنا مطلي بالعسل ليجتمع عليّ الذباب والنحل ، وافترقوا على هذا ، فلما افضى الأمر اليه كما عنى بلغ كل واحد منهم أمنيته على نحو ما طلب (١) . هذه قصة سقناها في هذا المجال لا لنثبت صحتها أو بطلانها بل مهما تكن فانها تم عن قوة مخيلة ذلك الشاب والأماني التي يتطلبها من الطموح ، والروح الخفاقة في صدره وتطلعه إلى العرش الذي ملك عليه حواسه ومشاعره وقبل أن ندخل في صلب الموضوع يجب أن نعرف كيف توصل هذا الشاب الفقير المعدم إلى أن يختلط بأهـــل البلاط في قرطبة ويعتلي عرشاً أسس على الجماجم وأهرقت من أجله دماء غزيرة ، هذا ما نبحث عنه الآن .

---

(١) ص ١٨ ـ المعجب في تلخيص اخبار المغرب (عبدالواحد المراكشي) ليدن .

الفصل الثالث

محمد ابن أبي عامر

أصله ونسبه

هو محمد بن عبدالله (١) بن أبي عامر بن محمد بن عبدالله بن عامر بن محمد ابن الوليد بن يزيد بن عبدالملك المعافري (٢) القحطاني ، أمه تميمية أسمها بريهة (٣) بنت يحيي بن زكريا التميمي وكان يعرف بابن برطال (٤) ، وهو من قرية من أعمالها تسمى طرش (٥) وهذه القرية واقعة على نهر (آروا) من أعمال المدينة المعروفة بالجزيرة الخضراء ، ومنها رحل شاباً الى قرطبة وتأدب بها وسمع الحديث على أشهر رجال العصر كالقرشي والقالي وابن القوطية سالكاً سبيل القضاة في أوليته مقتفياً آثار عمومته وخؤولته وكانت له همة يحدث بها نفسه بادراك معالي الأمور ، وتزيد في ذلك حتى كان يحدث

---

(١) هو عبدالله المكنى بابي حفص والد محمد المنصور من أهل الدين والزهد في الدنيا والقعود عن السلطان ، سمع الحديث وأدى الفريضة ومات منصرفاً من حجه بمدينة (اطرابلس) المغرب وأصهر التميميين المعروفين بقرطبة ببني برطل وكانت ام عبدالله والد المنصور بنت الوزير يحى بن اسحق وزير الناصر لدين الله وطبيبه .

(٢) ص ١٤٧ ج ٤ ابن خلدون .

(٣) وفي رواية بريهة كما في البيان المغرب - تزوجها عبدالله فولدت له أبا عامر المنصور وأخاه يحى .

(٤) ص ٣٩ - المعجب (المراكشي) .

(٥) ص ٣٨ - المعجب (المراكشي) ايضاً .

من يختص به عـــا يقع له من ذلك ، لذلك لقبه أصدقاؤه الطلاب بالمعتوه وهزأوا منه يوم كان يصرح لهم بذلك. ومما يؤثر عنه أنه كان ولوعاً بالتاريخ محباً لقراءة سير أولئك الذين بلغوا من المجد مراتب رفيعة وهم من أصول دنيئة فقيرة .

ومن أخبار ابن أبي عامر العجيبة التي أورد منها الشيخ الفقيه المحدث الضابط المتقن أبو عبدالله محمد بن أبي نصر الحميدي (١) طرفاً في كتابه المترجم بـ « الأماني الصادقة » فمن جملتها قوله (٢) : حدثني أبو محمد علي ابن أحمد بن حزم قال : أخبرني أبو عبدالله محمد بن اسحق التميمي قال: كان محمد بن ابي عامر نازلا عندي في حجرة فوق بيتي ، فدخلتُ عليه في بعض الليالي في آخر الليل ، فوجدته قاعداً على الحال التي تركته عليها أول الليل حين فصلت عنه فقلت له : ما أراك نمت الليلة، فقال: لا ! قلت : فما أسهرك ؟ قال : فكرة عجيبة ، قلت : في ماذا كنت تفكر ؟ . قال : فكرت إذا أفضى إلي الأمر ومات محمد بن بشير القاضي ، بمن استبدله ومن الذي يقوم مقامه؟ فجلت الاندلس كلها بخاطري فلم أجد الارجلا واحداً ، قلت : لعله محمد بن

---

(١) ص ٥٠ ـ المعجب للمراكشي ﴿ العريان العلمي ﴾ فيه : كان الحميدي شاعراً مؤرخاً حافظاً راوية تلمذ على الإمام الفيلسوف ابن حزم الظاهري وعنه روى اكثر علمه وكان مولده سنة ﴿ ٤٢٠ ﴾ ووفاته سنة ﴿ ٤٨٨ ﴾ وكان له رحلة الى المشرق ألف فيها كتاباً في طبقات علماء الاندلس سماه ﴿ جذوة المقتبس ﴾ وعن كتابه هذا وكتابه الآخر المسمى بـ ﴿ الاماني الصادقة ﴾ نقل عبدالواحد المراكشي كثيراً من اخباره عن الفترة الأولى من تاريخ المغرب والاندلس .

(٢) ص ٢٨ ـ المعجب ﴿ المراكشي ﴾ .

السّليم (١) ، قال : هو والله هو (٢) ، هذه الحكاية تدل على عزم وتصميم ابن ابي عامر وخياله الواسع وانه أظهر أخيراً من المواهب السامية وضروب الشجاعة والثقة بالنفس والقدرة على اغتنام الفرص ما جعله في مقدمة الرجال المصاميين . مستمداً نفحة من جده عبدالملك المعافري الوافد على الاندلس مع طارق بن زياد في أول من دخل من العرب الذين فتحوا اسبانيا يومذاك

(١) ص ٢٩ ـ المعجب للمراكشي قال : هو ابو بكر محمد بن اسحق الشهير بالسليم ، قاضي الجماعة بقرطبة ، ذكره المقرى فيمن كانت لهم رحلة الى المشرق ، وله شعر كتب به الى الحكم الثاني المستنصر بالله هو قوله :ـ

لو أن أعضاء جسمي ألسن نطقت ... بشكر نعماك عندي قل شكري لك
أو كان ما يكفى الرحمن من أجلي ... شيئاً وصلت به يا سيدي أجلك
ومن تمكن في الورى آماله كثرت ... فانما أملي في أن ترى أملك

(٢) ص ٣٨ ـ المعجب (للمراكشي) .

الفصل الرابع

في خدمة البلاط :

وبعد أن أتم دراسته في قرطبة (١) (*Cordova*) إقتعد دكاناً عند باب القصر يكتب فيه لمن يعن من كتاب من الخـــدم والرافعين للسلطان ، إلى أن طلبت السيدة (صبح ا أم المؤيد - أو صبيحة في تواريخ الافـــرنج أو الفجر (٢) كما يسميها بعضهم - من يكتب عنها فعرفها به من كان يأنس اليه بالجلوس من فتيان القصر ، فترقى إلى أن كتب عنها فاستحسنته (٣) .

وعين بعد ذلك مأموراً بسيطاً في احدى محاكم قرطبة فلم يتفق مع الرئيس الماضي لاختلاف مشاربهما فشكاه هذا للوزير المصحفي الذي نقله حالاً لادارة

---

(١) ص « ٤٨-٤٩ » - الحلل السندسية « شكيب ارسلان » جاء فيه : أعظم مدينة بالأندلس في كثرة أهل وسعة رقعة وفسحة اسواق ونظافة محال وعمارة مساجد وكثرة حمامات وفنادق ويزعم قوم من أهلها انها كأحد جانبي بغداد وهي مدينة حصينة ذات سور من حجارة ومحال حسنة وفيها كان مسكن سلاطينهم قديماً وداره داخل سورهـــا ، وأكثر ابواب هذه الدار مشرعة في البلد من غير جهة ، ولها بابان يشرعان في نفس السور الى الطريق الآخذ على الوادي من الرصافة . والرصافة مساكن اعالي البلد متصلة باسفلها من ربضها مشتبكة ابنيتها محيطة بها مستديرة عليها من شرقها وشمالها وغربها فاما الجنوبية منها فهو الى واديها ، والاسواق والسوع والخانات والحمامات ومساكن العامة بربضها .

(٢) - (*Aurore*) الماضية ص ١٠٨ محمد عبدالله عنان .

(٣) ص ٢٨٧ ج ١ نفح الطيب « المقري » .

أملاك عبدالرحمن الفتى إبن الخليفة الحكم الثاني عندما طاب الحكم وكيلا لأبنه (١).

كان إبن إبي عامر إذ ذاك في السادسة والعشرين من عمره وكان جميلا لطيفاً أديباً فوقع من نفس السيدة (صبح) زوج الخليفة موقعاً حسناً بما استمالها به من التحف (٢) وحسن الخدمة ما لم يتمكن لغيره ، ولم يقصر مع ذلك في خدمة المصحفي لجلب رضاه (٣).

ولما رأت السيدة صبح منه هذا الوفاء والنباهة جعلته مديراً لأملاكها ونبهت عليه الحكم فولاه قضاء كورة (اشبيلية) ولبلة واعمالها فظهرت منه نجابة فترقى الى الزكاة والمواريث باشبيلية (*Sevilla*) وتقلب في غير ذلك من المناصب حتى أصبح ناظراً في أمانة السكة (مديراً للمال) وأضاف له الخزانة وبفضل هذه الوظيفة أصبح في عهدته مبالغ طائلة من الأموال يستطيع أن يصطنع بها الأنصار ويخلق الأصدقاء والأتباع وقد اكتسب بمنصبه هذا رضاء الكثيرين لأنه أمدهم بالمال الوفير حين فرغت جيوبهم وخزائنهم ولما مات عبدالرحمن الصغير عينه الخليفة الحكم الثاني المستنصر بالله وكيلا لهشام وعينه أيضاً وكيلا لقصره ثم رقاه بعد ذلك رئيساً للشرطة

---

(١) ص ٣٧٢ ج٢ البيان المغرب في اخبار المغرب « ابن عذارى المراكشي » .

(٢) ص ٨٩ جوزيف ماكيب (*The Splender Of Moorish Spain*) جاء فيه: من هذه التحف كان انموذجاً لقصر يحتوي حتى على التماثيل الصغيرة للخصيان والحرس تحت من الفضة الصلدة ، تتجلى فيه مهارة ودقة العمال الفنيين في قرطبة .

(٣) ص ١٨٧ ج ١ نفح الطيب « المقري » .

الوسطى وأخيراً عينه حاكماً على موريتانيا (١) (*Maurtania*) ، ولم يبلغ إبن أبي عامر الحادية والثلاثين حتى كان قد تقلب في خمس أو ست وظائف من الوظائف الهامة ، فعاش عيشة بذخ وانفاق مما لفت النظر (٢) اليه ، وبنى لنفسه قصراً فخماً في الرصافة أخذ يؤمه الناس على مختلف طبقاتهم وطد ابن أبي عامر عرى الصداقة مع السيدة (صبح) حتى أخذ الاندلسيون يعرضون بهما ، هذا من جهة ، وكان يعمل الخطط سراً تحت طي الخفاء بالتقرب من الشعب وعمال الحكومة والبلاط من جهة أخرى ، فتم له ما أراد ، إذ جعل من جيش المأمورين السنة شكر لا تسبح الا بحمده ولا تتغنى إلا بكرمه ونبل أخلاقه وصفاء سريرته ، واتصل بالقادة ورجال الحرب - نظراً إلى اشتعال لهيب الثورات في موريتانيا - وذلك أن عبد الرحمن الناصر حينما ثبت سلطته في هاتيك الأصقاع كان يهاب أطماع الفاطميين في الأندلس غير أنه لما وجهوا وجوههم شطر مصر وتم لهم فتحها سنة ٣٤٩ هـ (٩٦٩م)

---

(١) ص ٨٩ جوزيف ماكيب ﴿ *The Splender Of Moorish Spain* ﴾ قال : وهي القسم الساحلي الشمالي لأفريقيا التابع لأسبانيا ، ولقد استفاد المنصور بان اطلع على التنظيمات الادارية والحربية الاقليمية واستطاع ان يكسب مودة القائد ﴿ غالباً ﴾ واستحسان الجنود ، فلذلك كان مركز ابن ابي عامر عند وفاة الحكم .

(٢) قال المراكشي ص ٣٧٥ جـ ٢ البيان المغرب : ثم سمي بابن أبي عامر الى الحكم وقيل عنه انه قد اسرع في مال السكة الموقوف قبله فأمره الحكم باحضاره ليشاهد سلامته، فاظهر الاسراع الى ذلك وقد استهلك جملة من الأموال فالقى نفسه في جبرها على الوزير ابن جدير في اسلافه اياها وكان صديقاً له ياسره فيه بحمل المال اليه من وقته فتمم به ما قبله وارتفعت الظنة عنه فازداد الحكم اعجاباً به .

اختطوا القاهرة عاصمة لدولتهم — ولم يعد ليجذب أصحاب الدعوة العلوية . وقد ود الحكم لو يخلي الأصقاع الأفريقية لأنها كانت تثقل عاتق الخزينة بالأموال الباهظة فأبى أن يفعل هذا لئلا يخسر نفوذه عند الأفريقيين فيعاودون سيرتهم الأولى ويغزون الشواطىء الأسبانية ، فأشعل حرباً ضروساً على الأمراء الأدارسة (١) حلفاء الفاطميين وهؤلاء قوم لا يحاربون إلا مع المصلحة ولا يغامرون إلا من اجل المادة والمنفعة ، فوجدوا في آل فاطمة أمة تتطلب منهم أموراً كثيرة بعكس الأمويين الطامعين في تعزيز ملكهم وبسط نفوذهم في العدوة (٢) الافريقية حفظاً للاندلس من الغارات الخارجية ،

---

(١) جاء في تاريخ الأندلس الى اشباخ ص ٣٢ ج ١ أن الادارسة يرجع نسبهم الى علي بن أبي طالب وفاطمة ابنة النبي محمد (ص) قد أسسوا منذ أواخر القرن الثامن الميلادي دولة في المغرب كانت عاصمتها فيما بعد مدينة (فاس) ، وقد سقطت دولتهم تحت ضربات الدولة الأموية الأندلسية والدولة الفاطمية اللتين تعاقبتا في غزوها واخضاعها في القرن العاشر ، وعاش بعض افرادها المعزولين في مصر والمغرب واسبانيا ، وقد ولي القاسم بن حمود سليل الادارسة في عهد الخليفة هشام المؤيد ولاية الجزيرة ومالقة ، ثم نادوا به خليفة وحاكماً لاسبانيا المسلمة سنة (١٠١٥ م) بعد اسقاط هشام ومن ذلك الحين سمي الأدارسة بالأندلس بالعلويين أو بني حمود وقد تصادموا مع أمراء الأندلس حتى تقضي على دولتهم .

(٢) جاء في صبح الأعشى للقلقشندي ص ١٥٢ ج٥ : بر العدوة وهو الغرب الأقصى وأن حدودها : فقد ذكر صاحب (العبر) انه من مدينة (آسفي) حاضرة البحر المحيط الى وادي (ملوية) ومدينة تازا من جهة الشرق ، يحيط به البحر المحيط من جهة الغرب ، وجبال (درن) وما يليها من جنوبيه وجبال تازا من شرقيه ، والبحر الرومي (البحر الأبيض المتوسط) ، من شماليه ثم قال : وهو ديار المصامدة وغيرهم من البربر . وذكر في (مسالك الابصار) نقلا عن أبي عبدالله محمد بن محمد السلايجي : ان حدها من الجنوب الصحراء الكبرى الآخذة من بلاد البربر الى جنوب افريقية .

ثم أخضعهم الحكم جميعاً إلا حسن بن كنونة الذي كاد أن يطرد آل أمية من المغرب ، فأرسل الحكم الثاني القائد (غالباً) وقد بذل هذا أموالا طائلة في سبيل الاستيلاء على قلوب الزعماء والانضمام الى صفوفه والتخلي عن الثائر . ولكن تحقيقاً للغاية التي صرفت الأموال من اجلها بعث الخليفة الحكم ابن أبي عامر مفتشاً وقاضياً للقضاة بها وجعله عيناً على العسكر وأوعز اليه في مهامه فسار ابن ابي عامر الى هنالك وطلب من عمال الدولة العسكريين والملكيين أن يؤدوا له حساباً دقيقاً عن أعمالهم فصحب حينئذ وجوه العسكر وأشياخ القبائل وملوكهم ، فحمدت آثاره ، وكان أول ظهوره تلك الحركة «١» وهكذا الأول مرة نرى ابن أبي عامر ذا علاقة بالجيوش وقادتها نخص بالذكر منهم (غالباً) إذ إنعقدت بينهما مودة أكيدة ، انتهت بأن (غالباً) تزوج محمد بن أبي عامر بإبنته ، وبواسطة هذه المصاهرة ترقى ابن ابي عامر وحاز رتبة ذي الوزارتين وما زال يترقى في الدولة حتى صار هو الحاجب الكبير «٢» ، وكان ذلك جل ما عناه وصبت اليه نفسه . وهنا لا بد لنا أن نفكر بصعوبة المهمة التي نالها ابن ابي عامر عند تنفيذ مهمته الجديدة في أفريقية ، فنرى ان مصلحته الخاصة قد أملت عليه أن لا يميل قيد خطوة عن سياسة التقرب الى القواد والجنود ، اما مصلحة الدولة فكانت تأمره بعقد اقتسام الحساب وعقاب كتبهم محاكمة قانونية عادلة ، إن أساءوا استعمال ما وكل اليهم فوفق ،

---

(١) البيان المغرب (المراكشي) ج ٢ ص ٢٧٦ .
(٢) الحلل السندسية شكيب ارسلان ج ٢ ص ٨١

بذكائه ودهائه وثاقب نظره الى الجمع بين أمانيه وما ألزمه عليه الواجب ، فأرضى الخليفة وجعل أرباب الجندية يثقون به ويهابونه ، وعقد المعاهدات مع الأمراء الأفريقيين من البربر (١) وغيرهم وأتى بالادارسة وابن كنونة خاضعين فاقتبلهم الحكم وغمرهم بنعمه ، فعد أول انتصار لابن أبي عامر .

ولما أشرف الحكم الثاني على الموت عقد مجلساً كبيراً حضره رجال الدولة وعظماؤها فطلب اليهم به تنصيب ولده هشاماً خليفة للمسلمين من بعده فبايعوه ، فأرسل ابن أبي عامر الرسائل الى الجهات بهذا الشأن وقد خطب باسم هشام المؤيد حينما توفى الحكم في سنة ٣٦٦ هـ أول تشرين الاول سنة (٩٧٦م) وهذه أول مرة يتدخل ابن ابي عامر في امر الخلافة ويدعو لها وقد توفق في ذلك فعلا .

توفى الحكم الثاني المستنصر بالله بين يدى الخصيين فائق وجوذر وكانا يومئذ رئيسي القصر اللذين كانت مقدرات الدولة في أيديهما فخفيا القصر ضد تسرب أي نبأ عن وفاة الخليفـــــة . وقررا بادىء ذى بدء في تدبير مؤامرة لاغتيال الوزير المصحفي ولكنهم عدلوا عن هذا التدبير وتم الاقتراح

---

(١) جاء في المسالك والممالك عن ابن خرداذبة ص ٨٩ـ٩٠ ليدن : كانت دار البربر (فلسطين) وملكها (جالوت) فلما قتله (داود) ـ عليه السلام ـ جلت البربر الى المغرب حتى انتهوا الى (لوبيه) و (مراقيه) فتفرقت هناك فنزلت (زناته) و (مغيلة) و (ضريسه) و (فرستة) الجبال ، ونزلت (لواته) أرض (برقة) وهي (انطابلس) طرابلس ـــة ثم انتشرت البربر الى (السوس الأدنى) خلف (طنجة) .

اضمه الى جانبهم لينجحوا في اسقاط هشام ، وقــد تظاهر الوزير المصحفي بالموافقة على مؤامرتهم ولكنه سرعان ما عرض الأمر على مجلس الوزراء الذي قرر بدوره ان تقمع هذه المؤامرة من جذورها ، (١) وكان الصقالبة يومئذ نيفاً على ألف مجبوب وكانوا سادة الموقف وأصحاب الكلمة في ولاية العرش والخلافة وكانت زعامتهم بيد (فائق النظامي) صاحب البرد والطراز .

و « جؤذر » (٢) صاحب الصاغة والبيازرة ، وكان رأي الصقالبة ان يصرفوا النظر عن تولية ولي العهد هشام بن الحكم وان يولي الخلافة أخو الحكم ـ من ام أخرى ـ « المغيرة » بن عبد الرحمن الناصر ، فيكون لهم السلطان والنفوذ المطلق في شئون الدولة «٣» ، ولكن الوزير جعفر المصحفي دين حاجباً بعد الحوادث ، إذ كان وزيراً أدرك مايضمره الصقالبة في الخفاء لذلك أسرع بتنظيم البيعة لهشام واحباط مسعى الصقالبة ، فدعى كبار الدولة أمثال إبن أبي عامر وقاسم بن محمد وغيرهما من قادة الجيش والمتنفذين وأمر

---

١) ص ٨٨ جوزيف ماكيب في ﴿ *The Splender Of Moorish Spain* ﴾ .

٢) جاء في البيان المغرب للمراكشي ص ٣٩٢ : عندما تحرج موقف الصقالبـــة استأذن (جؤذر) السلطان في الخروج الى داره مستعفياً من الخدمة ، وهو يظن انه لا يجاب الى ذلك ، فأذن له الخليفة بالخروج فاشتد وعيد اصحابه وزاد كلامهم ، وكان أجسرهم على ذلك (دري) الفتى الصغير لما فيه من التمرد والجهالة فحرك ابن أبي عامر لازالته والراحة منه ، فدس الى رعيته (ببياسة) وامرهم بالشكوى به وبإهماله وعدم العدو عليه والاراحة من جوره .

٣) من مقالة في الرسالة (محمد عوض محمد) مجلد الرسالة للسنة الثانية .

اليهما عول عليه فائق وجؤذر زعيما الصقالبة الخصيان وخوفهم من (المغيرة) الرجل الرهيب فى عرفه ، فقرروا جميعاً اعدام المغيرة قبل أن يعلم بوفاة أخيه الحكم، وذلك أن ابن ابى عامر سار بمائة من الحرس ومعه بدر القائد مولى الناصر وبعض الكتائب من الجند فأحاطوا بقصره ، وما هى إلا ساعات معدودات حتى أمر بخنقه وقضي الأمر .

الفصل الخامس

في منصب الوزارة :

وما انبلج فجر اليوم الثاني من تشرين الأول حتى بويع هشام المكنى بابي الوليد من قبل أعمامه وأقاربه ووزرائه وأكابر دولته وتسمى بالمؤيد ، وهو ابن عشرة أعوام وأشهر . وأول عمل قام به هشام المؤيد أنه أمر في اليوم العاشر لصفر من سنة ٣٦٦ هـ باسقاط ضريبة الزيتون المأخوذة في الزيت بقرطبة ، وكانت الى الناس مستكرهة فسروا بذلك أعظم السرور ولكن عاد هـــذا العمل على ابن أبي عامر بالخير لأنهم نسبوه اليه لا إلى المؤيد (١) .

وبعد بيعة هشام تسمى المصحفي (بالحاجب) وابن أبي‌عامر (بالوزير) ، وبهذا إنهار مشروع الصقالبة وباؤوا بالفشـــل غير أن العداء استحكم بين المصحفي والصقالبة فأخذ يتحين الفرص لسحقهم ، وبينما هو يضع الخطط لذلك اذا بابن أبي عامر يستميلهم اليه للتوصل الى هدفه بالتقرب الى القصر ،

---

(١) ص ٣٨٦ ج٢ البيان المغرب في اخبار المغرب (ابن عذارى المراكشي) .

فلما تم له ما أراد وتمكن من النفوذ في القصر والجيش إنقلب عليهم شر منقلب بالمعونة مع الحاجب المصحفي فنكبهم وشرّد زعماءهم وكسر شوكتهم بنفي زعيمهم فائق الى جزر البليار وفي ذلك يقول الشاعر سعيد الشنتريني : -

أخرج من قصر إمام الهدى كل فتى منبسط جائر
فمن رأينا منهم قال : لا مساس قبل الناس بالشاكر
نخف ظهر الملك المرتضى قد خف من ثقلهم الظاهر
وسال ماء العلم من وجهه مذ مال عن حبلهم الخائر
فلازم الميدان في قصره مع الوزير الخير الطاهر (١) .

وكان عدد الصقالبة في القصر ٤٠٠٠ أو يزيدون وبذلك حاز على رضى سكان العاصمة وخطب ودهم لأنهم تحملوا من مظالمهم وعسفهم الشيء الكثير ، ثم أصهر إلى غالب مولى الحكم وبالغ في خدمته والتنصح له ، واستعان به على المصحفي فنكبه ومحا أثره من الدولة ثم استعان على غالب بجعفر بن علي بن حمدون صاحب المسيلة ، وقائد الشيعة ممدوح ابن هانىء بالفائية المشهورة وغيرها وهو الفازع الى الحكم أول الدولة بمن كان معه من زناته والبربر ، ثم قتل جعفر عماله ابن عبدالودود وابن جوهر وابن ذي النون(٢)

(١) محمد عوض محمد عن مجلد الرسالة للسنة الثانية

(٢) ص ١٤٧ ج ٤ ابن خلدون

وأمثالهم من أولياء الدولة من العرب وغيرهم ، كل هذا ليصفو الجو لأبن أبي عامر .

هذه الاضطرابات الداخلية شجعت اسبان الشمال بان يشددوا وطأتهم على الأندلس فأصلوها ناراً حامية حتى أنهم وصلوا بزحفهم قرب قرطبة عاصمة الأندلس وكان هذا الزحف منذ تولية الحكم المستنصر ، فلما رأى طالب (طرّش) ما وصلت اليه الأندلس من لانحدارات العسكرية وصاحبه المصحفي الوزير الأكبر متردداً عن أمر دفاعها ، وثب متألماً لعدم إقتدار صاحبه على تخليص بلاده من أيدى المعتدين ، وأكد له أن المملكة تصاب بشلل معنوي ويعم البلاد السوء والحزن إن لم يبادر إلى الظهور بمظهر القوي الحازم أمام الأعداء ، فعقد الحاجب مجلساً للنظر في الوسائل التي يجب اتخاذها ، فقرروا الدفاع وأوكلوا الى ابن أبي عامر بالمهمة بشرط أن يقود جيشاً يختاره وأن يوضع تحت إمرته مائة الف دينار فأقروه على طلبه فاجتاح الحدود سنة (٩٧٧ م) واحتل حصن بانوس الذى بناه (راميرا الثاني) *Ramiro 11* ورجع سابياً غانماً ، وان لم تكن هذه الحملة عظيمة ولكن أتت بنتائج كبيرة منها : إرتداد الشماليين وجزعهم على نكبة الأندلس ، ثم إطاعة الجند لأبن أبي عامر إطاعة عمياء لما أغدق عليهم من الذهب والفضة رفاههم وهذا ما كان يتمناه ، ثم تمكن حبه من قلوب الناس لما أبداه من شجاعة في رد المعتدين وفي ذلك يقول :-

رميت بنفسي هول كل عظيمة وخاطرت والحر الكريم يخاطر

وما صاحبي الاجذان مشيم وأسمـــر خطي وأبيض باتر
فسُدت بنفسي أهل كل سيادة وفاخرت حتى لم أجد من أفاخر
وما شدت بنياناً ولكن زيادة على ما بنى عبد المليك وعامر
رفعنا المعالي بالمعالي مثلها وأورثناها في القديم معافر (١).

(١) ص ١٨٨ ج ١ نفح الطيب (المقري) .

الفَصْلُ السَّادِسْ

سقوط المصحفي ونكبته :

ومن هذا الوقت أخذ نفوذ ابن أبي عامر ينمو وينبسط في مختلف الجهات بينما سلطة المصحفي (١) أخذت تتقلص وتتلاشى شيئاً فشيئاً، لأنه كان رجلا ذا مقدرة متوسطة وقد أرتفع من رجل وضيع ، لان أباه وهو بربري من مقاطعة فلانسيا (*Vlancia*) كان معلماً للحكم الأمير (٢) ، لذا لم يكن من الدهاة الذين عرفوا من أين تؤكل الكتف وتقتنص القلوب وتدار دفة الأمور بحزم وثبات ، فكان ضعيفاً في إدارته قليل الثقة بنفسه ، وأنه تأثر بنفس الشعور الذي تأثر به الحكم الأمير حين كان تلميذاً لابيه ، ومع ذلك كانت لاتنقص المصحفي تلك الميزات التي استحسنها الحكم ، فكان أديباً شاعراً ،

(١) جاء في البيان المغرب للمراكشي ص ٣٧٩ ج٢ : ان المصحفي هو ابو الحسن جعفر بن عثمان بن نصر بن فوز بن عبد الله بن تسيلة القيسي كان لطيف المنزلة من الحكم المستنصر بالله قديم الصحبة ، قريب الخاصة وكان أول سبب تأديب والده عثمان للحكم في صباه واستخدمه في ايام والده الناصر واستكتبه ورقاه الى خطة الشرطة الوسطى والنظر في عدة من الاعمال والكور فلما أفضت الخلافة الى الحكم قلده بعد ثلاثة أيام من خلافته خطة الوزارة وأمضاه على الكتابة الخاصة ثم جمع له الكتابة العليا بالخاصة .

(٢) دوزي ص ٤٧٨ .

وحظه السعيد كان مدهشاً جداً لانه كان أولاسكرتير الحكم الخاص وأصبح بنجاحه الفائق قائداً للفرقة العسكريـــة الثانية لحرس المدينة ثم أصبح حاكماً لمجوركا (*Magorca*)وبالنهايةأصبح سكرتيراً للدولةولكنه لم ينجح في توثيق الصداقة لأنه كان متكبراً بحديثه ـلانه حديث نعمة ـ وكان غروره لايطاق حتى انه أزعج النبلاء فاحتقروه لاخلاقه الفاسدة «وانه تجرد للعليا وتمرد في طلب الدنيا حتى بلغ المنى وتسوّغ ذلك الجني ووصل الى المنتهى وحصل على ما اشتهى دون مجدتفرع من دوحته ولافخر نشأ بين مغداه وروحته ، فساد دون سابقة ورمى الى رتبة لم تكن لنفسه مطابقة فبلغ بنفسه ونزع عن جنسه(١) »

وعندما اصبح (حاجباً) رئيساً للوزراء تظاهر بأنه راغب في تصحيح أغلاطه ولكنه عاد حالا الى كبريائه وغروره حتى أصبحت نزاهته وطهارته مشكوكا فيها .

وكان في الواقع قليل من كبار الموظفين لايوبخون على اخطائهم ، فانه بالرغم من اختلاسه الواضح كان يصفح عنه إذا هو شارك بالغنائم الآخرين وكان في بعض الاوقات يبقي الغنائم لنفسه دون مشاركة الآخرين

وكان المصحفي محروماً من المواهب الضرورية لرجل سياسي مثله (٢) ، أي كانت تعوزه الحنكة السياسية ، لذا كان يوجه معظم الأمور الصعبة الى ابن أبي عامر لحلها ، ثم كان يسند المناصب الى عشيرته الاقربين غير الاكفاء

---

(١) ١٨٨ ج ١ نفح الطيب (المقري) .
(٢) ص ٤٧٨ دوزي

مما جعل العرب النبلاء ينقمون عليه لانتسابه لبربر الخاملي الذكر في عرفهم .

إن هـــذا الضعف في المصحفي شجع ابن أبي عامر بأن يتحين الفرص ويتربص به الدوائر في أي وقت ممكن لينقض عليه ويوقع بـــه ليستأثر بالسلطة دونه ، ولكن تصرفه تجاه منافسه المصحفي كان حسناً في الظاهر ولا يـــدع أية مناسبة تمردون أن يلفت نظر « صبح » لقصوره المملوء بالأخطاء لذلك أخذ يفتش عن أنصار له فوجد هذا النصير القوي ألا وهو غالب قائد الوجه الأعلى وحاكم مقاطعةفرونتير (*Frontier*) وصاحب الكلمة المسموعة ، لأن هذا كان يأمل أن يكون هو الحاجب للدولة لما بذله من الجهود في إحراز أكاليل الغار ، ولما طاش سهمه وخاب أمله باستيلاء المصحفي على منصب الحجابة الذي لم تعرف الساحات الحربية يوماً ما أنه بطلها المقدام لذا حقد عليه وودّ لو يتحد مع الكاستيل وليون أعداء الدولة الأموية لينكب المصحفي ويطرده من البلاد إن هذه الأمنية تحققت في طرد المصحفي من تلقاء نفسها بدون إختيار ، لأن الصدف جمعت بين شخصين كل منهما يريد القضاء عليه وذلك عند ما غزا ابن أبي عامر الشمال ثانية فاجتمع بغالب واتفقا في (مدريد) على إسقاطه : وقد عين عند رجوعه محافظاً لقرطبة ، وكان أول عمل قام به هو إنزال العقاب الشديد برجال الحكومة الذين كان بهم مرض الرشوة والاهمال فوطد الأمن وضرب الجناة ، وهنا رأى الحاجب المصحفي أن ابن أبي عامر يمثل دوره بمهارة فائقة على مسرح السياسة ـ فتارة يظهر له بمظهر الصديق وطوراً يتفق مع أنداده عليه ـ أفاق من سكرته فأراد أن يفتك به ولكن أنى له ما أراد وهو ذلك

الخصم الذي حمته السلطانة (صبح) وأحبه الجيش وخطب وده أهل العاصمة لظهوره بمظهر المصلح الكبير ، فرأى المصحفي أن يستميل (غالباً) اليه بمختلف الطرق حتى أنه طلب يد ابنته (أسماء) (١) الى ولده عثمان ، وكادت هذه الخطة تتم لولا منافسة ابن أبي عامر الذي تم زواجه منها بعد استمالة أبيها اليه فباء المصحفي بالخذلان وكان هذا الزواج مبنياً على المنفعة المتبادلة والمصلحة المشتركة .

ولم يمض على هذا الحادث سوى أيام قلائل حتى سيق المصحفي في ٢٦ آذار سنة ٩٧٨ م (٣٦٨ هـ) مع أبنائه وأقاربه الى السجن بدعوى الاخلال بالامن العام والاساءة في تدبير أمور الدولة ، فحجزت جميع أمواله وعقاره ، وقد عذبه ابن أبي عامر عذاباً أليماً وانتقم منه انتقاماً وحشياً فكان يسجنه حيناً ويطلق سراحه حيناً آخر الى أن أعدمه شنقاً وقيل قضى عليه بالسم وقد بلغ من قسوة ابن ابي عامر واهانته له أنه كان ينقله معه في غزواته ذليلاً ، وكان ابن عثمان يسقيه دقيقاً خلطه بماء يقيم به أوده ، ويمسك به رمقه بضعف حال وعدم زاد ومال وكان يقول :

---

(١) لقد التبس الأمر على (جوزيف ماكيب) في كتابه (The Splender of Moorish Spain) ص ٩٠ : اذ انه ذكر (اسماء) انها ابنة الوزير ويعني بالوزير المصحفي وانه اراد ان يزوجها الى احد اولاد القواد بينما الواقع ان (اسماء) بنت القائد (غالب) وكان المصحفي يرغب اخذها لابنه (عثمان) ليستميل غالباً الى جانبه ضد ابن ابي عامر وهذا هو الصحيح كما جاء في الجزء الاول من كتاب دوزي ص ٢٨٣ ، وان المعلومات التي ذكرها (جوزيف) معكوسة تماماً توجب التصحيح اذ انها لو ثبتت لامكن اثبات الضد وجمعها في صعيد واحد وهذا خلاف المعقول .

تأملت صرف الحادثات فلم أزل … أراها توفي عند مقصدها الحرا
فلله أيام مضت بسبيلها … فاني لا أنس لها أبداً ذكراً
ليالي لم يدر الزمان مكانها … ولا نظرت منها حوادثه شزرا
تجافت بها عنا الحوادث برهة … وأبدت لنا منها الطلاقة والبشرا
وما هذه الأيام إلا سحائب … على كل أرض تمطر الخير والشرا (١)

ومن أقوال المصحفي يستعطف ابن ابي عامر حينما سجنه فيقول :

هبني أسأت فأين العفو والكرم … إذ قادني نحوك الاذعان والندم
يا خير من مُدّت الايدي اليه أما … ترثي لشيخ رماه (٢) عندك القلم
بالغت في الحط (٣) فاصفح صفح مقتدر … إن الملوك إذا ما استرحموا رحموا

فما زاده ذلك إلا حنقاً وحقداً وما افادته الابيات الا تضرماً ووقداً ، فراجعه بما أيأسه وأراه مرمسه وأطبق عليه محبسه وضيق تروحه من المحنة وتنفسه إذ يقول :

الآن ياجاهلا زلت بك القدم … تبغي التكرم لما فاتك الكرم
اغريت بي ملكاً لولا تثبته … ما جاز لي عنده نطق ولا كلم
فايأس من العيش إذ قد صرت في طبق … إن الملوك إذا ما استنقموا نقموا
نفسي إذا سخطت ليست براضية … ولو تشفع فيك العرب والعجم (٤)

(١) ص ٧٦ ـ اعلام الاسلام (على ادهم) .
(٢) في رواية (نماه) .
(٣) في رواية : السخط) .
(٤) ص ١٨٨ ج ١ نفح الطيب (المقري) .

ولما بلغ المصحفي هذا الجواب قال :

لي مـــدة لابـــد أبلغها فاذا انقضـت أيامها مت
لو قابلتني الأسد ضاريـة والموت لم يدن لما خفت
فانظر إليّ وكن على حذر فبمثل حالك أمس قد كنت

ومما يروى له عند ظهور ابن أبي عامر عليه ، وانتزاعه ما كان له من الحجابة واقصائه الى هذه الحالة من الذل والاعتقال ، قوله :

تندمت والمغرور من قد تندما وهل ينفع الانسان أن يتندما
غرست قضيباً خلته عود كرمة وكنت عليه في الحوادث قيّما
أكرّمه دهري فيزداد خسة ولو كان من عود كريم تكرما(١)

وقوله معزياً لنفسه ومجتزئاً في يومه بأسعاد أمسه فيقول :

أجازى الزمان على حاله مجازاة نفسي لانفاسهـا
إذا نفسٌ صاعـدٌ شفّها ، توارت بـه بين جلاسها
وإن عكفت نكبة للزمان عكفت بصدري على راسها(٢)

وقوله أيضاً :

لاتأمنن من الزمان تقلباً إن الزمان بأهله يتقلب

---

(١) ص ٧٣ اعلام الاسلام (على ادم .
(٢) ص ٤٠٢ ـ البيان المغرب (المراكشي)

واقد أراني ، والليوث تهابني ... وأخافني من بعد ذاك الثعلب

حسب الكريم مهانة ومذلة ... ألا يزال الى لئيم يطلب (١)

ومن بديع ما حفظ له في نكبته قوله يستريح من كربته فيقول :

صبرت على الأيام لما تولت ... وألزمت نفسي صبرها فاستمرت

فيا عجبا للقلب كيف اصطباره ... وللنفس بعد العز كيف استذلت

وما النفس الا حيث يجعلها الفتى ... فان طمعت تاقت والا تسلت

وكانت على الأيام نفسي عزيزة ... فلما رأت صبري على الذل ذلت

وقلت لها يانفس موتي كريمة ... فقد كانت الدنيا لنا ثم ولت (٢)

---

(١) ص ٤٠٦ ـ البيان المغرب (للمراكشي)

(٢) ص ٤٠٢ ـ البيان المغرب (المراكشي) ايضاً .

الفصل السابع

الحاجب او الحاكم المطلق :

مات المصحفي ، وبموته زاح ابن أبي عامر عبئاً ثقيلا عن عاتقه ، واجتاز مرحلة خطيرة في تاريخ حياته إذ تمكن بعد هذه المعركة الفاصلة أن يرقى الى ما تصبو إليه نفسه من تناول عصا الملك في يده وذلك : أنه أصبح (حاجب الدولة) رئيس الوزراء المطلق في شئون الدولة ، فاستوزر جماعة منهم الوزير أبو الحسن جعفر بن عثمان الملقب بالمصحفي ، ومنهم الوزير الكاتب أبو مروان عبدالملك بن إدريس الجزيري ومنهم الوزير أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي الذي اختصر كتاب العين (١) ، وكان قد ولاه شرطته ، وكان الزبيدي هذا من بطانة الحكم المستنصر ووجوه أصحابه (٢) وأستوزر أبا العلاء صاعد (٣) بن الحسين الرَّبعي اللغوي البغدادي ـ ألف له كتاباً سماه كتاب الفصوص على نحو كتاب النوادر لابي علي القالي ، وعن

(١) ص ٣٠ ـ المعجب للمراكشي ـ هو أول كتاب في اللغة وضعه الخليل بن أحمد فيما يقولون .

(٢) ص ٢٨ ـ المعجب للمراكشي .

(٣) ص ٢ جـ١ ق ٤ الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة (الشنتريني) جاء فيه : هو صاعد بن الحسن بن عيسى البغدادي تربة والطبري اصلا والربعي نسباً ينتمي في ربيعة الفرس وكان طلع على آفاق الجزيرة في ايام المنصور محمد بن ابي عامر نجما من المشرق غرب ولساناً عن العرب أعرب وفي ص ٩ من الذخيرة : ادخل على المنصور يوماً وردة =

طريق الصدفة سقط هذا الكتاب في النهر (١) - وقد أحسن الأختيار ،غير أن رفقاءه الذين درسوا وإياه علوم الدين من فقه وحديث اتهموه بالزندقة والوهن في مبادئه الدينية لتساهله نوعاً ما في تشجيع الفلسفة فعمدوا إلى قتل هشام وتنصيب عبد الرحمن بن عبد الله حفيد عبد الرحمن الثالث مكانه

= في غير أيامها لم ستتم فتح اكامها فقال فيها صاعد على الارتجال :

اتتك أبا عامر وردة يذكرك المسك أنفاسها
كعذراء أبصرها مبصر فغطت بأكمامها راسها

فسر بذلك المنصور وكان ابن العريف حاضراً فحسده وجرى الى مناقضته، وقال لابن ابي عامر :

ان هذين البيتين لغيره وما عندي فقال له المنصور أرنيه فخرج ابن العريف وركب وجعل يحث حتى اتى مجلس (ابن بدر) وكان أحسن أهل وقته بديهة فوصف له ما جرى فقال :

عشوت الى قصر عباسة وقد جدل النوم حراسها
فألفيتها وهي في خدرها وقد صرع السكر اناسها
كعذراء أبصرها مبصر فغطت بأكمامها رأسها

فاغتاظ المنصور على صاعد فقال غداً امتحنه ولما جاء الغد فاز صاعد في وصف ماقدمه المنصور له بديهة فأعجب به وأعطاه جائزة بألف دينار ومائة ثوب واجرى عليه المراتب من ذلك اليوم ثلاثين ديناراً .

(١) ص ٣١ ـ المعجب للمراكشي وفي ص ٣٢ منه أنشد ابن العريف وهو غريم صاعد عن هذا الكتاب حيث قال

قد غاص في البحر كتاب الفصوص وهكذا كل ثقيل يغوص

وفي ص ٣٣ منه انشد صاعد رداً على ابن العريف حيث قال :

عاد الى معدنــه انما توجد في قعر البحار الفصوص

فضحك المنصور لهذه المساجلة .

واسقاط الحاجب الجديد نفسه . ولما كان تلامذة الفقه عموماً من المتعصبين لاسلاميتهم شعر بالخطر المحدق به وعزم على نزالهم بنفس سلاحهم ، فأتى بالعلماء من أمثال : ابن الزبيدي وغيره الى مكتبة الحكم المستنصر وأمرهم بأنتزاع كتب الفلسفة واحراقها ليرفع تهمة الزندقة عنه ارضاء للعلماء والعامة ولكن هذا العمل كان بنظر طلاب الفلسفة جريمة لاتغتفر وخسارة علمية لاتعوض لاسيما وهو الرجل الحر الفكر والمشرع الحكيم ، ولكن السياسة قضت عليه أن ينزل على إرادة بعض علماء الدين والعامة ليجعلهم من اعوانه ومناصريه وان لايكون لاحد منهم حجة على فتكه بالمتآمرين من بعد بعد هذا وجه همه الى اتخاذ الوسائل الضرورية للاحتفاظ من أشراك الخليفة الصغير الذي بدأ يفهم معنى الحياة والقوة .

كان هشام الثاني المؤيد ذا عقلية طيبة خصبة وغاية في الحذق والذكاء في صغره كما يشهد بذلك الزبيدي مؤدبه . فاتفقت السيدة (صبح أمه مع ابن أبي عامر على خنق مواهب هذا الفتى في مهدها وعدم تنشئته وإعطائها لحملا مالا طاقة له به من الفروض الدينية والواجبات الروحية حتى نامت تحت عبئها الثقيل .

عندما تم للحاجب ابن أبي عامر ما أراد من الاستقلال بالملك والاستبداد بالامر خاف على نفسه من أن تظهر نواياه تجاه الخليفة السجين فينكشف أمره

وتسوء العاقبة لذلك ابتنى لنفسه مدينة على الوادي الكبير فنزلها وسماها (الزاهرة) (١) واتخذها مقر الحكومة الرسمي وشحنها بجميع اسلحته وامواله وأمتعته واتخذ فيها الدواوين والاعمال ثم أقطع ماحولها لوزرائه وكتابه وقواده وحجابه فابتنوا الدور والاسواق ومن ثمة نفذت الكتب والمخاطبات والاوامر باسمه وتلقب (بالحاجب المنصور ودعي له على المنبر عقب الدعاء للخليفة ومحا رسم الخلافة بالجملة وكتب اسمه في السكة والطراز (٢) .وارتدى الملابس المطرزة بالذهب باسمه - وهي من امتيازات الملوك - واصبحت الكتب بعد سنة (٩٩٢ م) تنفذ عنه كما لو كان هو الخليفة ، فيذكر اسمه في مطلعها هكذا « من الحاجب المنصور أبي عامر محمد بن ابي عامر الى فلان » . وأخـــذ

---

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٨ والمقري ج ١ ص ٢٧٠ وجاء في الروض المعطار ص ٨٠ - ٨١ ان الزاهرة مدينة متصلة بقرطبة من البلاد الاندلسية بناها المنصور بن ابي عامر وشرع في بنائها سنة (٣٦٨ هـ) واقامها بطرف البلاد على نهر قرطبة الاعظم فحشر اليها الصناع والفعلة وابرزها بالذهب واللازورد وجلب نحوها الآلات الجليلة وتوسع في اختطاطها وبالغ في رفع اسوارها . صار بناؤها من الأبنية الغريبة وبنى معظمها في عامين وفي سنة (٣٧٠ هـ) انتقل المنصور اليها ونزلها بخاصته وعامته فتبوأها وشحنها بجميع اسلحته وأمواله وامتعته واتخذ فيها الدواوين للعمال ، ثم اقطع وزراءه وكتابه وقواده وحجابه القطائع الواسعة فابتنوا كبار الدور وجليلات القصور واتخذوا خلالها المستغلات المفيدة والمنازه المشيدة ، وتناهي الغلو في البناء حولها حتى اتصلت أرباضها بأرباض قرطبة .

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٨ .

الوزراء بتقبيل يده (١) ، فحجر على الخليفة هشام المؤيد كل تدبير حتى انه إذا أراد أن يخرج الى المتنزهات أو يذهب الى الزهراء يجعل عليه برنساً ويلبس جواريه البرانس حتى لا يعرف منهن ثم يعيده على مثل ذلك وليس له من الملك إلا الدعاء على المنابر أيام الجمعة .

ثم أحاط قصره بسور منيع وبث العيون عليه ليأمن شره ثم إدعى ان أمور الدولة فوضت اليه من قبل الخليفة (٢) ، ليكسب عمله الصفة الشرعية .

ولما وثق الحاجب من قوته شرع بتنظيم الجيش وكان له فيه غايتان : الاولى وطنية والثانية شخصية بحتة ترمي إلى إذلال غالب ومحو نفوذه والسيطرة عليه وكان جيش التخوم يومئذ لا يتجاوز الخمسة آلاف وهؤلاء لا يعتمد عليهم فى صد غارات الأعداء ولا التغلب على غالب لقلة عددهم لان غالباً كان ربيب آل أمية ومولى لعبد الرحمن الثالث والقائد المحنك الذى عرف في حومة الوغى ، من أجل هذا كله كان يخشى بأسه والانتقاض عليه لما يتمتع به من سمعة حسنة وشرف رفيع .

لذا وجه همته نحو اكتساب جند يكون له بكليته لكي ينتصر على نده

---

(١) ص ٤١٧ ج٢ البيان المغرب (المراكشي) .

(٢) ص ٤١٣ ، ٤١٥ ج٢ البيان المغرب (المراكشي)

ويقهره فاستدعى أهل العدوة من رجال (زناتة) [١] ، والبربر ورتب جنداً واصطنع اولياء وعرف عرفاء من(صنهاجة) [٢] ومغراوة وبني يفرون وبني برزال ومكناسة [٣] وغيرهم وهؤلاء كلهم من بطون زناتة ، وقد أطمعهم بالرواتب الباهظة فاقبلو عليه زرافات ووحداناً من مسيحي الشمال من الكاستل (*Castail*) وليون (*Leon*) والنافار (*Navarra*) لكرمه الحاتمي وفقرهم المدقع ، فاكتسب مودتهم واخلاصهم واستولى على قلوبهم فاصبحوا ملكاً له يتصرف بهم كيفما شاء وشاءت أهوؤه ومطامعه وكانوا لا يفهمون العربية ، إلا أنهم نسوا أوطانهم الاولى ووجدوا بالحاجب ابن أبي عامر وحده وطناً لهم ، ثم حول نظـام الجند بتمامة حينما ازداد في جيشه عدد الأجانب ، فما عادت القبائل تؤلف الفرق بل أجبر الافراد أن تنخرط في سلك الأقسام الغربية عن قبائلها ، إطفاءاً لنفوذ الرؤساء من النبلاء وبات الجندي لا يعرف القبيلة التي ينتسب اليها ، وبذلك مزج شعوب الأندلس بعضها ببعض وأتم الوحدة التي بدأ بتأسيسها عبد الرحمن الثالث من تلك الأمم المختلفة ديناً وجنسية ولغة ،بعد أن أتم هذه الاستعدادات وقعت بينه وبين

---

(١) جاء في ص ٧٣-١ البيان المغرب (المراكشي) انها من القبائل العربية ولها بطون كثيرة منها بنو معزاوه وبني يفرون وهم من اعظم بطون زناتة وبنو مرين وكانت تلمسان داراً لمملكة زناتة على قديم الزمان متوسط بلاد قبائل زناتة .

(٢) ص ٣٦٢ جا البيان المغرب (المراكشي) جاء فيه صنهاجة وهم امراء افريقيا وكانت تقوم بدعوة العبديين ووقع بينها وبين زناتة حروب كثيرة .

(٣) ص ١٤٧ ج ٤ ابن خلدون .

غالب معارك عديدة ساعدت بها ليون خصمه ، وكان ذلك بعد أن أ نبه على حجره الخليفة ، وكاد في آخر مرة التقى بها جيشاها أن يولي الحاجب الادبار لو لم يصب غالب بجراح قضت عليه ، فدب الهلع في صفوفه سنة ٣٧١هـ(٩٨١م)وباءبالهزيمة(١) ، وهكذاأنتهت حياةهذا البطل فى سبيل الاهواء والمطامع الشخصية بدون نفع .

إنتصر الحاجب انتصاراً باهراً على ندهفثبت بذلك حكمه ووطدسلطانه بعد هذا حمل على ليون (*Leon*) حملات صادقات ليظهر أن جيشه لم يكن له فحسب بل للوطن أيضاً هنا وقف الحاجب يلوح بيديه معلناً الانتصارعلى خصومه وتأكد من قوتهو تفوقه علىمناوئية ولقب نفسة بعد هذا الانتصار «بالمنصور بالله» .

حكم المنصور إسبانياً نحو من ست وعشرين سنة ولقد آمل أن يورثها أبناءه من بعده ، فقلد ابنه أبو مروان عبد الملك بن أبي عامر الوزارة ثم الحجابه متنازلا له عنها سنة٣٨١هـ (٩٩١ م) وكان عمره (١٨) سنة وتلقب بالمظفر فجرى في الغزو والسياسةعنهشام المؤيد متخذا لقب الخليفة(المؤيد) سنة ٩٩٢م وسار على سنن ابيه ، وامر أن يدعى بالسيد (*Lord*) والملك الكريم سنة ٣٨٦ هـ (٩٩٦م) (٢) . كانت أيامه أعياداً فى الخصب والأمن دامت سبع سنين الى أن مات .

---

(١) ص ٤١٧ ـ ٢البيان المغرب المراكشي ،
(٢) ص ٥١١ دوزي

وفي هذا المجال نسوق قصة وقعت للحاجب المنصور أيام عظمته : « أنه قدم بعض التجار ومعه كيس فيه ياقوت نفيس فتجرد ليسبح في النهر وترك الكيس - وكان أحمر - على ثيابه فرفعته حدأة فى مخالبها فجرى نحوها وقد دخلت فتسللت في البساتين وانقطعت عن عينه فرجع متحيراً فشكا ذلك الى بعض من يأنس به فقال : صف حالك لابن أبي عامر فتلطف في وصف ذلك بين يديه فقال : ننظر إن شاء الله تعالى في شأنك ، وجعل يستدعي أهل البساتين ويسأل خدامها عمن ظهر عليه تبديل حال فاخبروه أن شخصاً ينقل الزبل اشترى حماراً وظهر من حاله مالم يكن قبل ذلك فأمر بمجيئه فلما وقع عليه نظره قال له إحضر الكيس الاحمر فتملك الرعب قلبه وارتعش وقال دعني آتي به من منزلي فوكل به من حمله الى منزله وجاء بالكيس وقد نقص منه ما لا يقدح في مسرة صاحبه فجبره ودفعه الى صاحبه والتفت ابن ابى عامر الى الزبال فقال له لو أتيت به أغنيناك لكن تخرج كفافاً لا عقاباً ولا ثواباً (١) » . يستبان من هذه القصة انه كان حازماً عادلا في حكمه مهيمناً على شئون مملكته . ولنرجع الى الحاجب المنصور ونتساءل لماذا لم يقبض على زمام الخلافة وقد أصبحت إسبانيا في قبضة يديه ! : إن المنصور كان يخاف الامة بأسرها لانها كانت تعترض طريقه وتعترف أن آل أمية هم الامراء الشرعيون وهم الورثة الحقيقيون للعرش والتاج وقد عمكن منها حب العائلة المالكة وتأصل فى عروقها ولو تصدى ابن أبي عامر الذي بلغت الدولة في أيامه أوج سعدها

---

(١) ص ١٨٨ - ١ نفح الطيب (المقري)

للخلافة.لهيبت الامة هيبة الرجل الواحد تقف دون آماله ، لذلك لم يتعرض للعرش بشيء لان اعتقاده كان راسخاً في أن الرأي العام لا بد وأن يتحول فتنسى خليفتها الفتى وتتحول الانظار اليه فترجح كفه ويحقق ما يصبو إليه .

لقد كادت (صبح) والدة الخليفة لابنها هشام لان الحب والرغبة دفعاها بأن تجعل من ابنها سجيناً لأبن أبي عامر فكادت لولدها وساعدت عدوه على بلوغ غايته التى ليس وراءها غاية من الرفعة ، ولما انتهت هذه الرغبة وأخمدت الايام جذوتها في قلبي الحبيبين ، أنقلب ذلك الحب الى بغض شديد فاخذت تكيد لابن أبي عامر الحبيب القديم وتحرض ولدها على خلع نير الحاجب المنصور عنه ، ومن هؤلاء المحرضين (زيري) بن عطية فقام في موريتانيا (*Maurtania*)يطلب الافراج عن الخليفة غير أن المنصور أرسل اليه عبد الملك المظفر ابنه فالتف حوله البربر وناجزوا زيري الحساب في معركة فاصلة شتت شمله بماسنة ٣٧٨ هـ (٩٨٨م) فمات متأثراً من الجراح التى أصابته سنة ٣٩٢هـ (١٠٠١م) ، ولما رأت السيدة (صبح) انه لاقبل لها بمناوأة رحل

---

(١) جاء في صبح الاعشى ص ١٥٨ حـ ٥ : زيري بن عطية من بطون زناته من البربر وكان اوليه أمره انه كان امير بنى حزر في وقته وانتهت اليه رياستهم وامارتهم في البداوة . وفي البيان المغرب المراكشي ص ٢٦٢ حـ ا قام ببلاد المغرب زيري بن عطيه الخزري المغراوي وملك (فاساً) وغيرها وصار امير زناته كلها في ذلك الوقت وكان يدعو لبنى اميه في دولة هشام المؤيد اذ كان القيم لها ابن ابي عامر حاجبه وهو يحارب اعدائه واضداده صنهاجه امراء افريقية ولكن نكث على ابن ابى عامر بعد الحب الشديد والوفاء الاكيد : كما قال بن حيان)

الدولة رجعت الى الله وقضت أيامها في العبادة والتقوى ، وهكذا قضى المنصور على آخر مناوئيه حتى (صبح) التى أصبحت من أشد خصومه ، وبهذا صفا له الجو واصبح الرجل المطلق فى البلاد .

الفصل الثامن

حروب وغزوات:

اول غزوة غزاها ابن أبي عامر في سنة ٣٦٧ هـ (٩٧٧م) إحتل بها حصن (بانوس) الذي بناه رامير الثاني (*Ramjro II*) ورجع سابياً غانماً ، وبهذه الغزوة ثبت قدمه في شئون الدولة ووضع الحجر الاساسي للمستقبل ، وبعد هذا الانتصار إنتصاراً له مغزاه الذي لم تخفق له راية من بعده في جميع حروبه الى النهاية .

وفي سنة ٣٧١ هـ (٩٨١م) حمل على ليون (١) *Leon* فانزل بها عقاباً صارماً على ماقامت به من مساعدة عدوّه غالب ، وفي ذلك رواية : أن أهل الاندلس لما رأوا فعل (صنهاجة) حسدوهم ورغبوا في الجهاد وقالوا للمنصور بن أبي عامر : لقد نشطنا هؤلاء للغزو ، فجمع الجيوش الكثيرة من سائر الاقطار

(١) جاء في كتاب صورة الارض ص ١١١ (ابن حوقل) قال : هي مسكن سلطانهم وعدتهم بعد (صورة) وجاء في الحلل السندسية ص ٥٢ : انها من المدن الشهيرة ولها مقاطعه يقال لها مقاطعة (ليون) ولكنها اليوم قد نزلت عن درجتها الاولى ولا يزيد سكانها على (خمسة عشر الفا)وهي من المدن القديمة التي استولى عليها الرومان وجعلو فيها مركز قيادة عسكرية ثم استولى عليها القوط ولبثت في ايديهم الى ان فتحها العرب سنة ٩٨٣م ثم استرجعها الاسبانيول وعظم امرها في القرن الحادي عشر الى الثالث عشر وفيها كنائس وأديار متعدده وآثار تدل على عظمتها السالفة

وخرج الى الجهاد وكان رأى في منامه تلك الليالي كأن رجلا اعطاه الاسبراج فأخذه من يده وأكل منه فعبره على ابن أبي جمة فقال له : اخرج الى بلد اليون فانك ستفتحها ، فقال : من أين أخـذت هذا ؟ فقال لان الاسبراج يقال له في المشرق (الهليون) فتلك الرؤيا قال لك هاليون ، فخرج اليها و نازلها وهي من اعظـم مدائنهم واستمد أهـلها الفرنج فأمدوهم بجيوشهم كثيره واقتتلوا ليلا و نهاراً فكثر القتل فيهم وصبرت صنهاجة صبراً عظيماً ثم خرج (قومص) كبيرمن الفرنج لم يكن لهم مثله فجال بين الصفوف وطلب البراز فبرز إليه جلالة ابن زيرى الصنهاجى فحمل كل واحد منهما على صاحبه فطعنه الفرنجي فمال عن الطعنة وضربه بالسيف على عاتقه فابان عاتقه فسقط الفرنجي الى الارض وحمل المسلمون على النصارى فانهزموا إلى بلادهم وقتل منهم ما لا يحصى وملك المدينة وغنم ابن أبى عامر غنيمة عظيمة لم ير مثلها واجتمع من السبي ثلاثون الفاوأمر بالقتلى فنضدت بعضها على بعض وأمر مؤذناأذن فوق القتلى المغرب وخرب مدينة قامونة . (١)

إن هذا الخبر مع ما فيه من صحة فيه مبالغة إذ أن الاسلام يحترم الموتى فلا أعتقد أن قائداً مثل ابن ابي عامر وقد تثقف بالثقافه الاسلامية الصحيحة يقوم بتكديس القتلى للتشفي إذن لا بد أن الخبر مدسوس ، بعد ذلك أستولى القائد عبدالله الذي يلقبه الافرنج (بيدراسكا) ، في هذه الغزوة

---

(١) ص ٢٣ـ ٢٤ جـ ٩ ليدن الكامل (ابن الاثير)

على سامورة (١) (Zamora) وهدم نحواً من ألف قرية ، واستنزل الحاجب حليفتي رامير الثالث (الكاستيل) والنافار في معركة (رودا) في الجنوب الغربي من (سيمانكاس) وكسرهم أشد كسرة ، وكانت الضربة شديدة على رامير الثالث (Ramiro III) فخلعه قومه وثارت غاليسيا (Galisia) ونصبت على العرش بدلا منه برمند الثاني (Bermudo II) عم رذمير (Ramiro) فخضع هذا الاخير للحاجب بشرط أن يعينه على خصمه وكبار مملكته ، وبعد هذه المعركة عاد ابن ابي عامر الى قرطبه مظفراً قاهراً لخصومه وأعدائه وتسمى (بالمنصور بدين الله) (٢) سنه ٣٧١ هـ .

بعث المنصور الى برمند (Bermudo) بالجيوش لتوطيد سلطانه ولكنه أحتل ليون (Leon) مدعياً أن ذلك خير وسيلة لتوطيد الأمن وحمايه الملك ، فصارت ليون مقاطعه من المملكة الاسلاميه الاسبانيه ثم وجه المنصور قواه نحو كاتلونيا (Catalonia) التي سادت فيها الفوضى من جراء مظالم الروح الاقطاعيه فخرج من قرطبه (Cordova) في ٥ مايس سنه (٩٨٥ م) (٣) ورفقته اربعون من الشعراء لينشدوه مفاخرهم مارا بالبيرة (Elvira) ، وبازا (Baeza) ولوقا (Loca) ، ودخل مرسيه (Murcia)

---

(١) جاء في الروض المعطار ص ٩٨ : ان (سمورة) هي دار مملكة الجلالقة على ضفة نهر كبير جداً خرار كثير الماء شديد الجرى عميق القعر وهي مدينة جليلة قاعدة من قواعد الروم وعليها سبعة اسوار من عجيب البنيان وبين الاسوار فصلان وخنادق ومياه واسعة .

(٢) ص ٤١٧ ـ البيان المغرب (المراكشي)

(٣) ص ٥٠١ دوزي

قاعدة تدمير « *Tudmir* » فتضيفه وجنده أبو عمر أحمد بن خطاب المعروف « بالخازن » ثلاثه عشر يوماً دون أن يصرف أحدهم درهماً واحدا وكان يجدد للمنصور كل يوم نوعاً من الاطعمه والفواكه لايشبه الذي قبله سار المنصور بجيشه الى قطلونيه « *Catalonia* » وهزم الكونت بريل « *Count Borrel* » وتقدم الى برشلونه (١) « *Barcelona* » واقتحمها وقتل معظم جندها وأهلها وأسر الباقين وخربها وقبل بريل « *Borrel* » ان يدفع جزيه عاليه صونا لبلاده من الخراب .

كانت هذه الحملة هى الحملة الثالثه والعشرين من نوعها سنة ٣٧٥ هـ « ٩٨٥ م » ولما عاثت جنود المسلمين في « ليون » وعاملوا سكانها معاملة الغالب للمغلوب لم يطق برمود الثاني « *Bermudo II* » صبرا على هذه الحالة حتى طرد المسلمين من بلاده فكان جواب المنصور لهذه الفعلة أن اجتاز الحدود سنة ٣٧٧ هـ (٩٨٧ م) واحتل كويمبرا *Coimbra* وهدمها الى آخرها وفي السنة التي تلت عبرت جيوش المسلمين نهر الدورة (*Douro*) وتدفقت كالسيل العرم لاتبقي ولا تذر حتى وصلت (ليون) ذات الحصون

---

(١) جاء فى الحلل السندسية ص٢٧٢ ج٢ : ان هذه البلده هي اعظم بلدة تجاريه وصناعية في الجزيرة الايبيرية وعدد سكانها يزيد على « سبعمائة الف نسمة وستين الفاً » .

وهي قاعده بلاد كتلونية ولها مقاطعة خاصه بها وفيها مركز القائد العام والوالي المدني على جميع كتلونية وفيها ايضا كرسي رئيس اساقفة وفيها مدرسة جامعة ، ولبرشلونة ارباض صناعية متعددة وفيها معامل للقطن واخرى للآلات الميكانيكية والكهربائية وتكون برشلونه من ثلاثة مدن : الاولى اصلية وتقع على سيف البحر والثانية الحديثة في القرون الوسطى وهي الاعظم والثالثة وهي الحديثه .

والابراج المنيعة البالغة كثافتها نحواً من عشرين قدماً فثبت اليونيون طويلا غير أن المنصور تمكن منها اخيراً ولم يبق فيها حجراً على حجر سنة ٣٧٨ ه (٩٨٨م) وعند رجوع ابن أبي عامر من حملته اكتشف مؤامرة دبرها كبار الدولة وفيهم ابنه الامير عبدالله وكان شاباً شجاعاً لا يتجاوز سنه الثانية والعشرين ربيعاً فتخلص منهم الواحد بعد الآخر بمهارة فائقة واراد أن يصلح ابنه إلا انه استغل فرصة انشغال ابيه في المعركة حتى فر مع نفر من غلمانه من المعسكر فلحق (بغرسيه (١) بن فرذلند) صاحب البه فقبله وأجاره على أبيه،فتحرك المنصور لغزو غرسيه *Garcia* ومطالبته بتسليم ابنه اليه فلما أصر (غرسيه) على الامتناع أضطر المنصور الى محاربته وايقاع الهزيمة به وفض جمعه، وافتتح حصن (وخشمه) عنوة واسكنه المسلمين وفرض على غرسيه شروطاً منها تسليم ابنه وغيرهم وأمر بقتله وكان صابراً على تحمل القتل وكان سنة ثلاثاً وعشرين سنة ، ولم يكتف المنصور بالقضاء على المؤامرة في مهدها بل صمم القضاء على غرسيه نفسه فدبر له الامر حتى أسر ومات في سجنه بعد خمسة أيام ، وكان المنصور يأخذ من الشماليين الجزية . من أشهر الحملات عليهم حملة (القديس جاك دي قومبوستل)

Garcia Fernandez, count of castile (1)

وسنتياغو (١) (*Santiago*) أو (شانت ياقب) كما يدعوها العـــرب وهى قاصية غاليسيا واعظم مشاهد النصارى ببلاد الاندلس لفرض سلطانه عليهم وهم يحجون الى هذه المدينة من أقاصي فرنسا وايطاليا والمانيا ، ولها المنزلة الثانية بعد (روميا) ولم يطمع أحد ملوك الاسلام في قصدها ولا الوصول اليها لصعوبة مسالكها ، فخرج اليها المنصور غازياً بالصائفة وهي غزوته الثامنة والاربعون فجاز كوريا « *Coria* » وفيش (*Viseu*)واوبورتو (*Oporto*) ، وكان المنصور قد تقدم في انشاء اسطول كبير في الموضع المعروف بقصـــر أبي دانس (*Kasr - Abi - Danis*) من ساحل غربي الاندلس ويسمونه اليوم (*Alcacerdosal*) فى البرتغال ، وجهزه ، برجاله البحريين وصنوف المترجلين وحمل الاقوات والاطعمة والعدة والاسلحة ،

---

(١) جاء في الحلل السندسية ص ٦٤ ج٢ : ان مدينة شانت ياقب وفيها قبر ياقب وهو عند النصارى في الفضل يقصد نساكهم له من اقاصي بلادهم ومن بلاد القبط والنوبة وغيرها ،وفي الروض المعطار ص ١١٥ : وفيها كنيسة عظيمة عندهم وهي في ثغور ماردة ،وهذه الكنيسة مبنية على جسد يعقوب الجواري يذكرون انه قتل في بيت المقدس واد له تلامذته في مركب فجرى به المركب في البحر الشامي الى ان خرج به الى البحر المحيط حتى انتهى به الى موضع الكنيسة بساحل فيه بنيت الكنيسة

وجاء في الحلل السندسية ص ٦١ ج ٢ شانت ياقب *Santiago de compostela* وهي بلدة سكانها ١٥ الف نسمة وكانت قاعده مملكة (جليقية) وكان لها الشأن الاول تنزلت عن معاليها السالفة ورجعت مركز مقاطعة اوكرسي رئاسة اساقفة ، وهي قديما وحديثا مدينة اسبانية المقدسة هدمها الغازي الكبير المنصور بن ابي عامر المعافري سنة «٩٩٧م» ثم جددوا بناءها ، وكلمة *Compostela* تعنى حقل النجم اي ان احد القسس رأى لمعانا كالنجمة استدل بها على قبر ياقب

فاعانه في حملته هذه بعض الـكونتات القوامس المعاهدين ومعهم بعض رجالهم وللمنازل سنتياغو (*Santiago*) وجدها خالية من السكان فهدم المدينة باسوارها ومصانعها وكنيستها وحفظ المنصور قبر ياقب من الخراب ووضع عليه حرساً ، ورمى مدينة من كوسمو ﴿ *San Cosmo de Mazanca* ﴾ بالقرب من « *Coruna* » بالمنجنيق من الجو وبعدذلك أوطأ جنده ﴿ سانت مانـكش ﴾ (١)على البحر المحيط كما يقول المقرى (٢) ثم رحل الى قرطبة بطريق هوميكو « *Lamego* »وهناك استقل عن الـكونتات القوامس واهدى لهم بعض الهدايا منها بعض المصانع وكساهم وكسا رجالهم وصرفهم الى بلادهم، وكتب عن هذه الحملة تقريراً وافياً أرسله الى دار الخلافة وفي الوقت الذي دخـــل فيه المنصور قرطبة صحب معه جمهور من أسرى المسيحيين يحملونـــ على ظهورهم ابواب واجراس كنيسة سانتياغو (*Santiago*) «٣» . ان هذه الحملة تدل على مقدرة المنصور الحربية والسياسية ومبلغ ثقته بنفسه وبعد نظره والهيبة التي يتمتع بها امام النصارى والخوف الذى استحوذ على نفوسهـــم ولكن يؤخذ على المنصور انه كان بطاشاً يحطم كل شيء في سبيله وان كان ذا قيمة ، وآخر صحيفة من تاريخ طالب (طارش) ، فهي انه في سنـــة

---

(١) جاء في ص ٦٤ من الحلل السندسية : ان شنت مانكش منقطع مقيم شانت ياقب على البحر المحيط وهي غايةلم يبلغها قبلهم مسلم ولا وطئها لغير اهلها قدم وانكفأ المنصور عن باب شنت ياقت .

(٢) ص ١٩٣ - ١٩٤ - ابن خلدون

(٣) ص ٥٢٠ دوزي .

٣٩٢ هـ(١٠٠٢ م) قام بجنده وضرب الكاستل فاحتل (*Caual*)وخرب دير القديس اميليان حامي البلاد و شفيعها ومع كثرة انشغاله بحرب نصارى اشمال والامراء الثائرين من الافرنج« *Frank* » والاندلسيين لم يغفل عما كان يدور في المغرب الاقصى إذ علم ان زيرى بن عطية حاكم المغرب الاقصى رفع علم الثوره بتحريض من السيدة «صبح» أم هشام المؤيد الخليفة ومن شايعها لفك الحجر عن الخليفة ، فغضب المنصور وأعلن أن زيرى طريده وطلبته وأمر مولاه واضحاً بمهاجمته ومنازلته فسارت هذه الحملة في بادىء الامر سيراً حسناً فقد انتصر واضح على زيري ولكن الحظ تنكر له أخيراً وهزم فالتمس من المنصور المدد فاردفه بولده عبدالملك وجاء المنصور نفسه الى الجزيره الخضراء يمدها بالقواد والاجناد ، فسار عبدالملك من طنجة الى زيرى ودارت بينهما حرب شديدة انهزم بعدها زيرى مثخناً بالجراح حتى انه مات متأثراً منها ، فاستقامت طاعة المغرب للمنصور بجانب الاندلس وهكذا ضرب الحاجب المنصور مثلا بانه يستطيع ان يحارب في جبهتين ويخضد شوكة الاعداء والمناوئين ، وهكذا فان سكان شمالي اسبانيا لم يقاوموا رجلا أشد مراساً من المنصور فلقد غزاهم ستاً وخمسين غزوة ، اذ كان يرتادهم مرتين في كل عام ، فهدم مدنهم الكثيرة وعواصمهم الثلاثة وهي : ليون (*Leon*) وبامبلون [١] (*Pampelonne*)

---

(١) جاء في الروض المعطار ص ٥٥-٥٦ ان بنبلونه دار مملكة غرسية بن شانجة سنة ٣٣٠ وهي بين جبال شامخة وشعاب غامضة قليلة الخيرات اهلها فقراء جاعة لصوص ، واكثرهم متكلمون بالبشقية لا يفهمون خيلهم اصلب الدواب حافرا لخشونه بلادهم ويسكنون على المحيط في الجوف

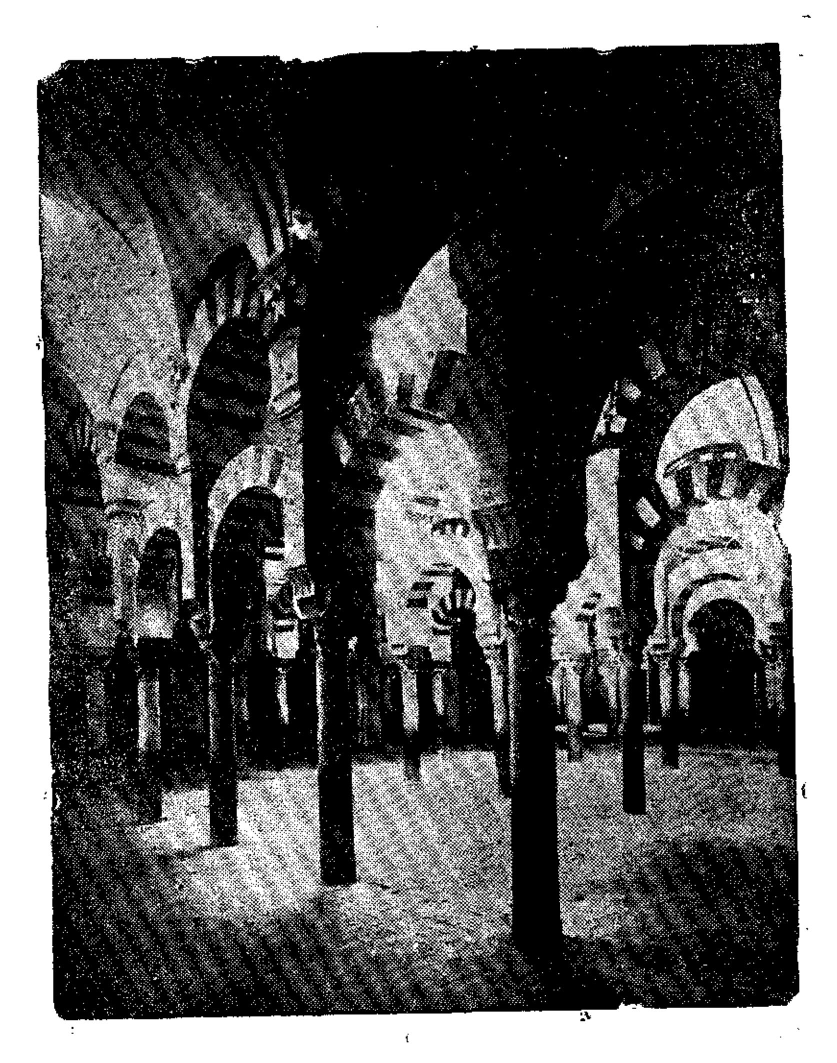
وبرسلونه (*Barcelona*) ، ولطالما أرتعدوا لذكراه ونثل لهم الرعب في شخصه ، أتم الله له الحال ست وعشرين سنة غزا فيها اثنتين وخمسين غزاة مابين صائفة وشاتية وتوفى سنة اثنتين وتسعين وثلثمائة « ١ » ، ودفن في مدينة ـ سالم ـ(٢) (*Medinaceli*) وكانت وفاته في الغزوة الاخيرة ـ قنالش والدير (٣) ـ . وكان حازماً قوي العزم كثير العدل والاحسان حسن السياسة: فمن محاسن أعماله انه دخل بلاد الفرنج غازياً فجاز الدرب اليها وهو مضيق بين جبلين وأوغل في بلادهم يسبي ويخرب ويغنم فلما أراد الخروج رآهم قد سدوا الدرب وهم عليه يحفظونه من المسلمين فأظهر انه يريد المقام في بلادهم وشرع هو وعسكره في عمارة المساكن وزرع الغلات وأحضروا الحطب والتبن والميرة وما يحتاجون اليه ، فلما رأوا عزمه على المقام مالوا الى

---

(١) ص ٣٩٨ ج ٨ الكامل ابن الاثير ليدن .

(٢) ص ٨١ ج ٢ الحلل السندسية جاء فيه : هي مدينة « سالي » كما يقول الاسبانيول وهي في موقع رفيع منيع وقد كان للعرب فيها قلعة شهيرة جعلوها من امهات الثغور في وجه الاسبان ، والبلدة المعروفة من قبل العرب ولا تزال فيها آثار رومانية من القرن الاول بعد المسيح الأن العرب حصنوها واعتنوا بها وكانت مركزاً عسكرياً عظيماً وكان يقال لها « الثغر الاوسط » وقد رمم غالب القائد الشهير حصونها سنة ٣٣٥ هـ بعد أن خربت وفيها دفن الحاجب المنصور .

(٣) ص ٨٢ ج٢ الحلل السندسيه : ان المنصور وصل في الغزوة الاخيرة الى قنالش وهي على مقربة من ناجرة و لوكرولي من مقاطعة ريوجة واما الدير فالمرجح انه دير ساني ميلان ، شفيع قشتالة وقد هدمه المنصور بتلك الغزاة فيما هدم من الديار .



مدخل

جامع قرطبة

السلم فراسلوه في ترك الغنائم والجواز الى بلاده فقال : أنا عازم على المقـــام فتركوا له الغنائم فلم يجبهم الى الصلح فبذلوا له مالا ودوابا تحمل له ما غنمه من بلادهم فأجابهم الى الصلح وفتحوا له الدرب فجاز إلى بلاده «١»

وكان والمنصور صارماً في تعاليمه الحربية محباً لجنده فأطاعوه واصبحوا حصن إسبانيا الاسلامية الحصين .

واهم اسباب حروب ابن ابي عامر المستمرة هي فكرة سامية لم يفكر فيها أحد قبله من أمراء الاندلس أو ساستها ، ذلك انه فكر في أن يسحق نصارى الشمال والغرب سحقاً تاماً ، وأن يقضي على استقلالهم القومي وان يخضعهم جميعاً إلى سلطة الخلافة .

وكان يبدأ الحرب داعا ولم يقبل من اعدائه صلحا أو مهادنة وهذه الخطة خلاف من تقدمه من الغزاة والمحاربين .

هذا سجل أعمال المنصور الحربية وهو مفخرة له يكشف عن نواحي البطولة والحزم ، وقوة الأرادة والادارة فيه ، كل هذه الاعمال لم تحل دون قيامه بالاعمال العمرانية التي سجلت له هي الأخرى نصراً فنياً وثقافياً بجانب النصر الحربي الممتاز . ومن أول أعمال المنصور بناء مدينة الزاهرة التي شيد فيها القصور الضخمة والمتنزهات الجميلة ونقل حكومته اليها ثم مهـــد المواصلات وسهل الطرق الوعرة والشعاب الصعبة ووسع المسجد الجامع (٢) (جامع قرطبة) وبنى قنطرة على نهر قرطبة الأعظم انتهت النفقة عليها الى أربعين

(١) ص ٢٩٩ ج٢ الكامل ابن الاثير ليدن .

(٢) تجد الصورة في ص ٧٩ من الكتاب

ألف دينار ، وشيد أخرى على نهر « أستجه » (١) *Ecije* وهو نهر « شنيل » *Xenil* ومن أعماله الشخصية انه خط بيده مصحفاً كان يأخذه في حروبه (٢) واستطاع ان يمكن لحضارة الاندلس وثقافتها ويوفر لها الرخاء ، فاطرد رقي الفنون والصناعات ، وتقدمت الحياة الفكرية، وقد أظل المنصور رجال الأدب برعايته وشجعهم لانه كان يتذوق الشعر والادب ، وكان يعطف على احرار الفكر والفلاسفة ولم يتردد قط في حمايتهم دون أن يجرح أوهام المتعصبين وكان له مجلس في كل اسبوع يجتمع فيه أهل العلم للكلام بحضرته مدة بقائه بقرطبة ، فازدهرت في حكمه الزراعة والصناعة وزهت العلوم والآداب وفاضت خزائن قرطبة بالأموال ، وكانت أيامه أيام فخار وظفر وسعادة ورخاء حتى أن الحميدي قال : « وختن المنصور أولاده وختن معهم من أولاد أهل دولته خمسمائة صبي ومن أولاد الضعفاء مالم تحصى عدته ، وانفق فيه خمسمائة ألف دينار (٣) .

---

(١) جاء في الحلل السندسية ص١٣٣ ج ١ ان (استجه) *Ecije* مدينة وليست نهراً وهي واقعة على نهر (الغرناطة) المسمى (شنيل) *Xenil* اذن تسمية نهر شنيل نهر استجه كما هو وارد جاء من قبيل المجاز أي ربما سمي باسم المدينة نفسها ليس الا .

(٢) ص ١٨٩ ج ١ نفح الطيب (المقري) .

(٣) ص ٦٦ ج٢٢ نهاية الارب في فنون الادب (النويري) .

الفصل التاسع

نهاية :

ومما يؤثر عن المنصور انه كان يحمل اكفانه معه الى ساحة القتال وقد خاطتها بناته ، وبينما هو راجع الى عاصمته بعد تلك الحرب الضروس انتابه في الطريق مرض شديد فقضى عليه في العاشر من آب في مدينة (سالم) عام اثنتين والف للميلاد (١٠٠٢ م) وكتب على قبره :

آثاره تنبيك عن أخباره حتى كأنك بالعيان تراه
تالله لا يأتي الزمان بمثله أبداً ولا يحمي الثغور سواه (١)

وهناك تعليق لاذع لمؤرخ مسيحي ناسك يعبر أحسن تعبير عن شعور المسيحيين تجاه المنصور إذ قال : «وفي سنة (١٠٠٢ م) مات المنصور ودفن في الجحيم» . «٢»

هذا القول يعكس لنا عظمة المنصور ورد الفعل الذي أصاب المسيحيين في الأندلس لانه استطاع ان ينشر لواء الاسلام في ربوعهم بالرغم من تكتلهم وعصبيتهم ضد المسلمين . ولما توفي المنصور قام بالأمر بعد إبنه عبد الملك وتلقب بالملك المظفر ، وكانت ولايته عهد سلام ورغد ، ولما توفي حلت الكارثة التي كان يخشاها البعض ويتمنى وقوعها البعض الآخر

ويروي ابن الأثير عن سبب وفاته أن أخاه عبدالرحمن (سمّه) في تفاحة

---

(١) رزق الله منقريوس ـ تاريخ دول الاسلام .

(٢) ص ٥٢٣ دوزى ﴿*Died in (1002) he was buried in Hell*﴾

قطعها بسكين كان قد (سم) أحد جانبيها فتناول أخوه مما يلي الجانب المسموم وأخذ هو ما يلي الجانب الصحيح فأكله بحضرته فاطمأن الظافر وأكل ما بيده منها فمات وقام من بعده أخوه عبد الرحمن المسمى سانكول (شنجول) (١). وكان يكرهه الشعب لفسقه ومجونه فكان نقمة على نفسه وعلى بيت بني عامر وخاصة انه تلقب بالناصر لدين الله وجرى على سنة أبيه في حجر الخليفة هشام ولم يرض بهذه السلطة فحسب بل تعداها حتى أراد أن يستأثر بما بقي من رسوم الخلافة ، فطلب من هشام أن يوليه عهده فأجابه على ذلك وأشهد عليه كبار دولته وصدر العهد سنة ٣٩٩ هـ (١٠٠٨م) ولكن لم يدم له هذا النصر حتى زلزل زلزالا شديداً واجتث من عروقه وذلك : أن الأمويين هجموا عليه وفتكوا به وهو على مقعده من قصر الخلافة وخلعوا هشاماً وبايعوا حفيد الناصر محمد بن هشام وأسرع عبد الرحمن الى الهرب فقبض عليه قرب العاصمة وقتل، وهكذا نرى الأحوال بعد هذه المؤامرة لم تهدأ ، فتارة تستأثر بالملك أسرة بني عامر وطوراً ترجع الخلافة الى أبناء الحكم وهشام الى أن وهنت قوتهم وقل عددهم وتفرق شملهم مما مهد للاسبان الاجانب واللاجئين سبل القوة والفرصة الكافية لان ينتصروا عليهم ويخرجوهم من البلاد ، فاندثر ملكهم ودالت دولتهم ، بعد أن مضت ثلاثة قرون استمر فيها تفوق دولة الاسلام في شبه الجزيرة الاسبانية (الاندلس) وكادت الممالك النصرانية التي أقامها السكان الجبليون في اشتوريش (*Asturias*)

---

(١) لان أمه كانت نصرانية بنت شنجو ملك نافار *Navarra*

وبسكونس (*Biscaya*) - والتي وطدوا دعائمها - تسحق غير مرة .

وفي أوائل القرن الحادي عشر الميلادي إضمحل سلطان الأمويين في اسبانيا بعد ازدهاره ، وقامت على انقاضها دول اسلامية مبعثرة ولكن شاءت الاقدار أن يستمر العلم الاسلامي خفاقاً على الاندلس زهاء خمسمائة عام أخرى قبل أن يطوى امام اعدائه الى الأبد .

الفصل العاشر

تقرير :

من أبطال التاريخ من نلتمس في حياتهم الضوء الذي يعيننا على السير في الظلام المدلهم ويؤنس وحشتنا ، ومنهم من نلتمس في حياته القوة التى تعيننا على تذليل الصعاب ومواجهة الازمات وحياة المنصور نموذج في ابتغاء طلب القوة والعمل على تحقيق أسبابها واستيفاء عناصرها (١) إن طلب القوة من حيث هي رغبة غامضة من شيم النفوس ، ولكن الرغبة في القوة من حيث هي عاطفة مسيطرة ونزعة عارمة جبارة من أندر الصفات ، والرجل العادي يطلب القوة ، ولكنه لا يتسلح بالشجاعة الكافية ، ويتوق الى السيطرة ، ولكنه لا يريد أن يحمل التبعة ، وينزع الى النفوذ ، ولكنه لا يريد أن يضني نفسه بالعمل المتواصل والارهاق المستمر والقوة لا ينالها العابثون اللاهون بل يظفر بها من يوفي لها حقوقها ويقوم بفروضها . وقد كان المنصور كلما عظم نصيبه من القوة كثر همه وارتفع الى مستوى ما يحمل من تبعة كان لا يريد القوة ليتخذها ذريعة للعيشة الرافهة والانغماس في اللهو والمباهاة بمباشرة السلطان وتصعير الخد ، وانما كان رجل جد وإقدام وقد أسعفته الأقدار وحابته الظروف من ناحية ، وبذل هو من ناحية أخرى جهداً جباراً واستغل

(١) ص٧ ــ اعلام الاسلام (علي ادهم) .

ملكاته العظيمة وعبقريته . ولقد قال دالمبير : « شيئان يستطيعان أن يصلا الى قمة الهرم: النسر والحشرة الزاحفة » (١) وقد كان في المنصور صبر الحشرة الزاحفة ومثابرتها ودأبها وكان فيه من النسر المحلق قدرته على التدويم والانقضاض ، ولذا كان وصوله الى القمة وبلوغه الذروة حتماً مقضياً .

كان الطموح مفتاح أخلاق المنصور وأساس شخصيته وهو رجل عملي لا يفكر في المبدأ والمصير ولا كيف جاء إلى هذه الدنيا الحافلة بالعجائب ، فغوامض الحياة لا تستأثر بتفكيره ولا تلهيه عن غايته ، وخير علاج لكل مشكلة عنده هو العمل والحركة والنشاط (٢) وهكذا كان يلقى الحياة بعزم وإيمان بنفسه لا تزعزعه الشكوك ولا تضعفه الحوادث ، وقد كان بارعاً في السياسة وحبك الدسائس وإحكام المؤامرات ، قديراً في الرياء والمكر والمداهنة ، وقد وصفه خصومه (بالثعلب) وكان جسمه خاضعاً لعقله ، ولذآته وشهواته خاضعة لطموحه ، وكانت فيه صفتان بارزتان من صفات رجال الاعمال وقادة الرجال وهما : انه يعرف مايريد ويرى الاشياء على حقيقتها ويحتفظ بهدوئه واتزانه في الازمات ، وكان يحاول أن يلم بكل شيء ويتعرف التفصيلات ، وكان يرى شيئين بوضوح هما الموقف الذي يواجهه والوسائل التي يملكها ، فلا يسمح للمظاهر أن تغرر به ولا للاماني أن تخدعه ، ويعرف من بادىء الامر كيف يضع أساس بنائه ويدخل البيت من بابه ، ويكبح جماح نفسه ، وهو ينظر الى كل شيء من ناحيته العملية النفعية ، ولم يضعف النجاح تفكيره

---

(١) ص ٩ ـ اعلام الاسلام (علي ادهم) .

(٢) ص ١٠٥ ـ اعلام الاسلام (علي ادهم) .

وقدرته على وزن الأمور ولم يراخ من عزمه ويقظته وهي الصفات اللازمة للاحتفاظ بالقوة «١» .

وكانت تلتقي في هذه الشخصية العجيبة النادرة عوامل الخير ونوازع الشر ، وتمتزج امتزاجاً محيراً ، وكان مهيباً وقوراً إذا خلا كان أحسن الناس مجلساً وأسرّهم بمن حضر منادماً ومؤانساً ، ولـكن الضرورة السياسية من ناحية ،وغريزة المحافظة على الذات من ناحية أخري جعلت ألواناً من القسوة والشدة وا قمع تثار من خفايا نفسه بين الحين والحين تبعاً لما يستلزمها ضغط الظروف .

ولا نستطيع أن ننزه المنصور ، إذ أنه في سبيل الوصول الى المـكانة العالية التي انتهى اليها والمحافظة عليها قد ارتكب بعض الجرائم التي تثلم المروءة وتمس الكرامة وتطفيء من بريق شهرته ، فهو مثلا قد استغل ضعف امرأة ومثل لها دور المحب الواله حتى خدعها عن نفسها واستغل ذلك الحب لاطماعه فحجر على ابنها ، وطمس شخصيته وقتل مواهبه ، ليخلو له الجو ـ دون أن يعرف بأنه كان هدفاً لمؤامرة فتاة بشكنس عدوة العرب التي تأملت ان تسقط الدولة الأموية في الأندلس على يديه ، الا أن المنصور كان أكثر دراية وحنكة منها ـ ، ثم فكر بالشخصيات البارزة ونكل بمناوئيه وضرب الواحد بالآخر بكل الطرق الممكنة .

ولأندرشيء في معظم الرجال الذين صنعوا التاريخ وسيطروا على الحوادث ووجهوا الأمم هو عظمة النفس وسمو الروح ، واساس هـــذه العظمة هو

---

(١) ص١٥٧ ـ اعلام الاسلام (علي ادهم) .

التضحية بالمنافع في سبيل الأخلاق الكريمة والنزعات الانسانية وانكار الذات انكاراً منبعثاً من الارادة القوية بدافع من طيبة القلب وصفاء النفس لا من ناحية الغطرسة والتدبير والاحتيال ، والسياسي العظيم ورجل القضايا في أغلب الأوقات شديد الاثرة كثير الاعتداد بنفسه يحاول ان يستغل كل شيء لنجاحه الشخصي ليعبر منه المغنم ، ونلمح في الرجال الذين بلغوا ذروة المجد وسيطروا على نفوس البشر تغلب إحدى غريزتين عليهم ، هما : غريزة حب النظام أوغريزة العطف الجم وحب الانسانية ، والغريزة الأولى قد تنحدر الى الاسراف في الطغيان والعتو ، الى العنف في كل شيء ، والغريزة الثانية قد ترق حواشيها حتى تصبح نوعاً من الحساسية المريضة والموازنة بين هاتين العاطفتين تخرج قائد الرجال وسيدهم ، وكذلك كان المنصور . فهو على جبروته وقسوته يسترضي السيدة التي أراد إلحاق دارها بأطراف الجامع الكبير فأصرت على أن يكون بالدار التي تنقل اليها عوضاً عن دارها نخلة مثل نخلتها التي ستفارقها فأجابها الى طلبها .

ويقتضينا الانصاف أن نقول أن الحاجب المنصور لم يرتكب عملا من أعمال القسوة بغير مسوغ ، وكان في غير ما يتصل بسياسة دولته وتثبيت سلطانه صديقاً وفياً ورجلا نجداً مخلصا مقدراً لواجبه وتبعته مؤثراً للعدل وكان يراجع نفسه ويحاسب ضميره في أمور كثيرة ، وفي بعض المواقف كان ينتصر ضميره ويتغلب على إصراره وعناده ، ويعتبر المنصور « بسمارك » العرب بحق وما بسمارك الغرب غير تلميذ له لانه استطاع ان يتغلب على اعدائه كل على انفراد دون أن يصطدم باكثر من عدو واحد في وقت واحد إذ

أنه كلما فرغ من جبهة فتح الأخرى ليتغلب عليها بهدوء ، وهكذا تم له النصر المؤزر .

وقد وقف الحاجب المنصور عبقريته على تثقيف سلطانه ، وشد اركانه فكان إذا قدم من غزوة لا يحل عن نفسه عدة الحرب حتى يدعو صاحب الخيل فيعلم ما مات منها وما عاش ، وصاحب الأبنية لما وهي من اسواره ومبانيه وقصوره ودوره ، وكان يزن الرجال ويعرف مايدور في افكارهم. وهكذا يكون رجل الدولة ملما بكل شيء من أحوال دولته صغيرها وكبيرها فكان الحاجب المنصور فلتة من فلتات التاريخ إذ يعد عصره في الأندلس من العصور الذهبية دون ما تحيز .

انتهى بعون الله تعالى

بعد ان انتهيت !

بقلم الدكتور صفاء خلوصي

الآن وقد انتهيت ايها القارىء من مطالعة سيرة رجل عظيم كالحاجب المنصور لابد وانك قد امتلأت اعجاباً بهذه الشخصية الفذة التي يندر ان تجود بها بطون التاريخ الا بعد عصور من المخاض طويلة .

ولد عصامياً واستطاع بماله من مهارة وبراعة ودهاء أن يتسلق الى اعلى ذرى المجـــد . كان انتهازياً هـــذا حق ، ولـكن انتهـــازيته كانت لفائدة المجتمع الذي عاش فيه ولولاه لما استطال عمر الدولة الاموية ولعجل بسقوطها ، كما اثبت التاريخ ذلك بعد وفاته بعهد قصير . فهو الذي جـــدد شباب دولة قرطبة وارهب الاسبان واعاد للعرب سابق صولتهم في شبه جزيرة ايبريا .

ومن المضحك ان قومه في الشرق قد نسوه بينما اعداؤه في الغرب قد مجدوه ومن ذا الذي لا يعجب المبقرية حتى وان كانت في شخص عدو ومن ذا الذي لا يخلد ذكر انسان ارتفعت في ايامه اسبانيا الى اسمى غايات الرفعة حتى وان كان هذا الانسان خصماً مناوئاً ودكتاتوراً شديد البطش .

الحق ان ابن ابي عامر يعد دكتاتور القرن العاشر في اسبانيا ، ولـكنه كان دكتاتوراً عادلا ... ولسنا بصدد استحسان الدكتاتورين او ذمهم ، بل كل ما نريد ان نقوله هنا انه كان من طراز المستبد العادل على نحو ما يذكره لنا

التاريخ عن عمر بن الخطاب (رض) ولقد احسن الاستـــاذ عبد الجبار الحامدحين فكر في كتابة سيرة هذا الرجل ليفخر به وبشخصيته الجيل الناشيء ، فالواقع ان الانسان في دور الطفولة يجب ان يقرأ كتب الخرافات من نحو خرافات لافونتين وايسوب ، والقصص الخيالية من نحو روايات الف ليلة وليلة ورحلات كلفر حتى اذا ما بلغ سن الشباب الناضج استهوته حياة الابطال والمشاهير ومن المؤسف ان اطفالنا محرومون من القصص الخيالية والمجلات الخاصة بالاطفال على نحو ما يتمتع به اطفال الغرب لتنمية خيالهم ومن المؤسف كذلك ان شبابنا لا يزود بسير وتراجم العظماء لتنمية عواطف الرجولة فيهم وقد آن الاوان لأن يعالج هذا الوضع بكتابة كتب السير على نحو خاص ، على نحو ما كتب كارلايل كتاب الابطال ، فهذا العصر الذي نمر به الامة العربية يجب ان يحول الى عصر البطولة فهو بدء الرينيسانس العربي - الاسلامي في كل مكان ولا بد لكل رينيسانس من اناجيل ، لا بد من كتب تصور حياة مشاهير تاريخ الامة

ولتكن البداية بسيرة الحاجب المنصور فهو مثل رائـــع من الوان البطولة العربية ولرب معترض يقول وكيف تنسبه الى العروبة ولم يبـــق في اسبانيا من لم يختلط بالاسبان او بالبربر او بهما معاً ، لو جاز هذا الاعتراض لوجب علينا ان نخرج عدداً غير قليل من ابطال تاريخنا خارج نطـــاق تمجيدنا واشادتنا بهم . ولكن الشيء الذي يجب ان نذكره دوماً والمقياس الذي يلزم ان نأخذ به ابدأ هو ان كل من خدم قضية من قضايا العرب سياسية كانت او اجتماعية او ادبية وكان يشعر شعوراً عربياً وينطق باللسان العربي

المبين فهو عربي ، شاء المنافقون المعزقون لشمل الامة أم ابوا !!

وما دام التاريخ العربي والتاريخ الاسلامي شيئاً واحداً فمن نافلة القول ان نقول هذا عربي وهذا بربري ، فان اختلف بينهما الدم جمعت بينهما وحدة اخرى غير مفصومة العرى ـ تلك هي الوحدة الاسلامية الكبرى التي تعقد يد البربري الافريقي بيد الاندونيسي او الباكستاني . ولقد سررت اشد السرور حين علمت ان شعراء الباكستان يتغنون دوماً بمفترحات عقبة بن نافع وطارق بن زياد وان كتابهم قد وضعوا روايات تاريخية مماثلة لما وضعه المرحوم جورجي زيدان في العربية وعندما سألت احد الباكستانيين في ذلك قال : «ولم لا ؟ ان تاريخنا وتاريخكم واحد ! »

فاذا كان المسلمون البعيدون عن اللسان العربي يمجدون ابطالنا افليس حرياً بنا اذن ان نمجدهم اضعاف تمجيدالآخرين اياهم ؟

* * *

ولقد انتهز المؤلف فرصة مناسبة لاصدار مثل هذا الكتاب ، في وقت توالت فيه النكبات على حرمات البلاد العربية وازداد المستعمرون جراءة في الاعتداء على كرامة عرب شمالي افريقيا ، فوضعنا المأزوم الحاضر يدعونا الى استنهاض الهمم وتقوية العزائم بضرب الامثولة تلو الامثولة للاجيال الصاعدة ولئن عجزنا عن ان نبتعث بطلا جديداً بين الاحياء من طراز صلاح الدين والحاجب المنصور فلا اقل من ان نبتعث الموتى من قبورهم ونشير الى قومنا قائلين: (هؤلاء هم اجدادكم فذودوا عن حرمة بلادكم كما كانوا يفعلون فان لم تفعلوا لم تكونوا من سلالتهم وانما عدكم التاريخ طارئين دخلاء . .

وحاشا كم ان تكونوا كذلك !)

وقد تدرج المؤلف في كتابه بشكل لطيف اذ قدم لنا قبل كل شيء صورة لاسبانيا ثم تتبع تقدم بطلنا الجريء خطوة خطوة من يوم ان كان يحلم بالعظمة فيوعد زملاءه طلبة المدارس بالمناصب التي يحلو لهم تسنمها الى يوم اصبح المصحفي وغالب والملكة صبح في قبضة يده .

ورغم عيوبه واخطائه ورغم بطشه بخصومه وتنكيله بمناوئيه فهو شخصية تاريخية محبوبة ، على انه يثبت نظرية سميه المنصور - ثاني خلفاء بني العباس - ان الملك عقيم ، فرجل الدولة القوي لا يعبأ عند الايجاب باية عاطفة من عواطفه لاجل تركيز دعائم الملك ، فالحاجب المنصور لم يعبأ بالملكة صبح بعد ان وجد من المصلحة اقصاءها عنه ولا بصهره غالب الذي تزوج ابنته ولا بالمصحفي الذي قربه من البلاط ولا بولده الذي ثار بوجهه فامر بقتله ويلوح لمن يتتبع خطوات ابن ابي عامر انه كان انساناً وصولياً وان الاشخاص الذين ذكرناهم آنفاً لم يكونوا سوى درجات في سلم ارتقائه الى اوج المجد حتى اذا ما صعد درجة رفسها برجله ليصعد الى التي فوقها .. حتى بلغ القمة !

الحقيقة تختلف عن هذه الصورة التي تلوح لنا لاول وهلة ، فليس كل من كان وصولياً استطاع ان يحكم دولة مدة ستة عشرين عاماً وان يشن ستاً وخمسين غزوة مظفرة ، اذا لم تكن فيه عبقرية خاصة وكفاءة نادرة تدعم مثل هذه الاعمال الباهرة . وان ما يبدو لنا صورة من صور الوصولية لم يكن غير متطلبات الظروف التي عاشها الحاجب المنصور - فالمصحفي كان رجلا ضعيفاً غير كفء لادارة مملكته فلا بد للاداري

النابغ من طرازه أن يزيحه من طريقه ليصفو له جو العمل وصهره غالب كان رجلا طموحاً وطموحه فوق كفايته والملكة صبح Aurora امرأة متقلبة الاهواء متبدلة العواطف ومن ذا الذى يستطيع ان يعطى قياده لامرأة ولا يندم . اما ولده الامير عبدالله فقد ثار بوجهه مرتين وقد عفا عنه في المرة الاولى فلما تمادى في تمرده والتجأ الى عدوه كارثيا (وقد نقل المؤلف الاسم بلفظه الحرفي « غرسيه ») أمير كاستيل اضطر الى غزو لأخير واسره وقتله وقتل ولده معه !

وهكذا فان كثيراً من الاعمال قد تبدو جائرة ولكن عندما يتغلغل الانسان الى حقيقتها يدرك انها لم تكن سوى قصاص عادل .

ولكن شيئاً واحداً لا يمكن ان يغفر لابن ابي عامر ذلك انه حجر على الخليفة هشام الثاني وهو ابن احدى عشرة سنة وكانت الدلائل كلها تشير على انه سيصبح خليفة نابهاً يسير بالدولة قدماً الى الامام ، الا ان الحاجب المنصور لم يشأ الا أن يقتل مواهبه في المهد وهذا مما ادي الى تدهور الدولة بعد وفاته بمدة وجيزة على ان الاستاذ نكلسن فى كتابه تاريخ العرب الادبي ص ٤١٣ يقول ان محمدا بن ابي عامر حكم حكماً صالحاً نبيلا وانه كان رجل دولة وجندياً عظيماً فلما خسر معركة وقد اثخن قلوب الاسبان بالجراح حتى ان راهباً من رهبانهم ممن سجلوا تاريخ هذه الفترة كتب معلقاً على وفاته سنة ١٠٠٢ م : لقد دفن فى الجحيم !

وبعد فان المؤلف قد مزج النثر بالشعر والتاريخ بالقصة فجاء كتابه — على اقتضابه — ممتعاً حقاً يستحق الثناء والاشادة والتقدير وله مني كل هذه جميعاً مشفوعة بتهانيي الحارة على نجاحه في تحليل سيرة من اكثر سير التاريخ غموضاً وتعقيداً وأقلها مصادر بحث وانه بذلك قد سجل نصراً لادب السير والتراجم فله من ارباب التاريخ والادب كل شكر .

المصادر العربية

١ ـ نفح الطيب	المقري
٢ ـ ابن خلدون	ابن خلدون
٣ ـ المعجب في تلخيص اخبار المغرب	عبد الواحد المراكشي ـ ليدن
٤ المعجب في تلخيص اخبار المغرب	عبد الواحد المراكشى تصحيح العريان والعلمي
٥ ـ البيان المغرب في اخبار المغرب	ابن عذارى المراكشي
٦ ـ دائرة المعارف الاسلامية	ابراهيم زكي خورشيد واحمد الشنتناوي وعبد الحميد يونس وعباس محمود
٧ ـ دائرة المعارف	البستاني
٨ ـ معجم البلدان	ياقوت الحموي
٩ ـ الكامل	ابن الأثير
١٠ ـ فتوح البلدان	البلاذري
١١ ـ المسالك والممالك	عن ابن خرداذبة ـ ليدن
١٢ ـ كتاب صورة الأرض	ابن حوقل ـ القسم الاول (ليدن)
١٣ ـ نهاية الارب في فنون الأدب	النويري
١٤ ـ مختصر الدول	ابن العبري
١٥ ـ بغية الملتمس في تاريخ الاندلس	الضبي
١٦ ـ تاريخ فتح الاندلس	ابن القوطية مصر

١٧ ـ الحلل السندسية	الامير شكيب أرسلان
١٨ ـ الاشارة الى من نال الوزارة	ابن الصيرفي ـ حققه وعلق عليه عبدالله مخلص
١٩ ـ تاريخ دول الاسلام	رزق الله منقريوس الصدفي
٢٠ ـ أعلام الاسلام	علي أدهم
٢١ ـ تاريخ الشعوب والاسلام	ترجمة الدكتور نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي
٢٢ ـ مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامي	السير امير علي
٢٣ ـ مجلد الرسالة للسنة الثانية	محمد عوض محمد
٢٤ ـ تراجم إسلامية شرقية وأندلسية	محمد عبدالله عنان
٢٥ ـ تاريخ الاسلام السياسي	الدكتور حسن ابراهيم حسن
٢٦ ـ الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة	ابو الحسن على بن بسام الشنتريني
٢٧ ـ تاريخ الاندلس في عهد المرابطين والموحدين	يوسف اشباخ ـ ترجمه (جامعة فؤاد) وتعليق محمد عبدالله عنان
٢٨ ـ صبح الاعشى	القلقشندي
٢٩ ـ صفة جزيرة الاندلس منتخبة من الروض المعطار في خبر الاقطار	ابي عبدالله الحميري : عنى بنشره لافى بروفنصال
٣٠ ـ غرائب الغرب	محمد كرد علي
٣١ ـ تاريخ العرب في اسبانيا	محمد عبدالله عنان

المصادر الاجنبية

1- SPANISH ISLAM INSPAIN — BY:REINHART DOZY £-; F. GRIFFIN STOKES LONDON, 1913

2 - THE SPLENDOUR OF MOORISH SPAIN — BY: JOSEPHMCCABE

الفهرست

جدول الخطأ والصواب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٥	٦	من	فى
١٠	٥	مث	مثل
١١	١٣	اصاى	نصارى
١١	١٥	وكيردة	نوكيردة
١٣	٩	القلقشند	القلقشندي
١٣	١٢	ص ٢٩٣	ص ٢٣٩
١٣	١٩	ص ٣	ص ٢
١٦	١	واحد	واحداً
١٦	١	واحداً	واحد
٢٢	٨	الزا	الزنا
٢٤	٨	وللاحجار	والاحجار
٢٤	١٣	والصادرة »	والصادرة » (٢)
٢٤	١٥	افراد	فرار
٢٤	١٦	وانصفواء	وانضواء
٢٨	٣	والبلدتين	والبلديين
٣٩	١٨	المقتبص	المقتبس
٥٩	٥	مز	العز

٦٨	١٠	(زيرى)	(زيرى) [١]
٧١	٦	بجيوشهم	بجيوش
٨١	١٩	ص ٢٩٩ جـ ٢	ص ٣٩٩ جـ ٨
٨٤	١	أوه	أخوه
٨٥	٢	الا وين	الامويين
٨٦	٩	المتبعة	التبعة



المنصور بن ابي عامر يجود بنفسه بين ايدي ابنه وقواده واطبائه
ص ٨٧ ج ٢ الحلل السندسية (شكيب ارسلان) من كتب اياد محي الدين